

المبحث الثالث

المنهج التاريخي

ومبحث تطويع القرآن الكريم

إعداد
المهندس زهدي جمال الدين محمد

الفصل الأول

المبحث الأول

دراسة في سند القرآن الكريم

(المطلب الأول) : تدوين القرآن الكريم

مُتَكَلِّمًا

كان تعويل النبي ﷺ وأصحابه أول الأمر على جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ، ضرورة أنه نبي أمي ، بُعث إلى أمة أمية ، قال ابن الجزري : (١) ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب ، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة (٢) . ففي الحديث الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن الله عز وجل أنه قال : [إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لَأَبْتَلِيَّكَ وَأَبْتَلِيَّ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ] (٣) ، فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء وفي شرح قوله [لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ] قال ابن الأثير : أراد أنه لا يُمحى أبدًا ، بل هو محفوظ في صدور الذين أوتوا العلم ، [لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه] وكانت الكتب المنزلة لا تجمع حفظًا ، وإنما يعتمد في حفظها على الصحف ، بخلاف القرآن ، فإن حفظه أضعاف مضاعفة لصفحه . ثم كان من مزيد عناية النبي ﷺ وأصحابه ﷺ أن اعتنوا بكتابة القرآن الكريم ، حتى يكون ذلك حصنًا ثانيًا لحمايته من التغيير والضياع ، فأمر النبي ﷺ بكتابة القرآن حفظًا له في السطور بعد أن حفظه هو وأصحابه في الصدور ونهى في بداية الأمر عن كتابة غير القرآن ؛ حتى لا يلتبس به وقد ورد التصريح بكتابة الحديث بعد ذلك ، كما في حديث أبي هريرة في فتح مكة : [فَقَامَ أَبُو شَاهٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ : اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ . قَالَ الْوَلِيدُ : فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ مَا قَوْلُهُ : اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] (٣) ..

(١) هو الإمام العلامة محمد بن محمد بن علي بن الجزري، المقرئ المجود، صاحب التصانيف العظيمة القراءات، كالنشر وتقريبها، والدرة والطيبة، وغيرها كثير، وألف أيضًا في التفسير والحديث والفقه والعربية، ونظم كثيرًا في العلوم وغير ذلك في فنون شتى. توفي سنة ٨٣٣ هـ. مقدمة النشر في القراءات العشر (١/د).

(٢) النشر في القراءات العشر (٦/١)، وانظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٠٠/١٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الحج باب تحريم مكة وصييدها وخلاها وشجرها ولقطنها إلا لمنشد على التوام (١٢٩/٩) ح

١٣٥٥، والبخاري في كتاب العلم باب كتابة العلم (٢٤٨/١) ح ١١٢

وأما ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا إِلَّا الْقُرْآنَ فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهِ (١) .

قال النووي: وكان النهي (٢) حين خيف اختلاطه بالقرآن، فلما أُن ذلك أذن في الكتابة وقيل: إنما نهى عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة ؛ لئلا يختلط فيشتبه على القارئ في صحيفة واحدة (٣) ، وزاد الحافظ ابن حجر وجهًا أن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره (٤) وقد بلغ من عناية النبي ﷺ بتدوين القرآن أنه كان إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتّابه ، ويأمره بكتابة ما نزل عليه - ولو كان كلمة واحدة ، أو سورة طويلة - بمجرد نزوله عليه : فعن عثمان بن عفان ، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ ، وَيَقُولُ لَهُ : ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا (٥).

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ كُنْتُ إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ فَوَقَعْتُ فَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ فَخِذِي فَمَا وَجَدْتُ ثَقْلَ شَيْءٍ أَثْقَلَ مِنْ فَخِذِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ: اكْتُبْ فَكَتَبْتُ فِي كِتَفٍ ❀ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ❀ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَامَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى لَمَّا سَمِعَ فَضِيلَةَ الْمَجَاهِدِينَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا قَضَى كَلَامَهُ غَشِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ السَّكِينَةُ فَوَقَعْتُ فَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي وَوَجَدْتُ مِنْ ثَقْلِهَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَمَا وَجَدْتُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ثُمَّ سُرِّيَ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَقْرَأْ يَا زَيْدُ فَقَرَأْتُ ❀ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ❀ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ❀ (٦) الْآيَةَ كُلَّهَا .

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم - صحيح مسلم مع شرح النووي

(١٢٩/١٨) ح ٣٠٠٤ ، والدارمي في المقدمة . باب من لم ير كتابة الحديث (١١٩/١) ح ٤٥٠ .

(٢) يعني عن كتابة الحديث .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٠/١٨) .

(٤) فتح الباري (٢٥١/١) .

(٥) رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب من جهر بها (٢٠٨/١-٢٠٩) ح ٧٨٦ ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن

باب سورة التوبة (٢٧٢/٥) ح ٣٠٨٦ ، وأحمد في مسنده - مسند العشرة المبشرين بالجنة (٩٢/١) ح ٤٠١ ،

(١١١/١) ح ٥٠١ .

(٦) من الآية ٩٥ من سورة النساء .

قَالَ زَيْدٌ : فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ وَحَدَّثَهَا ، فَالْحَقَّتْهَا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُلْحَقِهَا عِنْدَ صَدْعٍ فِي كَتِفٍ (١) وروى أبو صالح عن ابن عباس في سورة الأنعام ، قال: هي مكية ، نزلت جملة واحدة ، نزلت ليلاً ، وكتبوها من ليلتهم (٢) .

سبب جمع القرآن كتابة في العصر النبوي :

وعد الله تعالى بحفظ الكتاب الكريم ، قال ﷺ:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣)

ولما كانت الكتابة من أسباب الحفظ، فقد يسرها الله للمسلمين، وأمر بها النبي ﷺ، وفعلها كتابه بحضرته ﷺ هذا ، وقد كان لكتابة القرآن أسباب أخرى ، منها :

١ - أن النبي ﷺ كان مطالباً بتبليغ الوحي ، قال ﷺ:

﴿ يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤)

والتبليغ في حاجة ماسة إلى الكتابة، فيها تقوم الحجة على من يرى الكتاب ممن لم يسمع البلاغ باللسان، إما لبعد داره أو بعد زمانه عن دار وزمان النبي ﷺ.

٢ - أن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه ، وأبعد عن ضياعه ونسيانه فافتضى ذلك تعضيد المحفوظ في الصدور بالمكتوب في السطور ، لأنه وإن كان النبي ﷺ حياً بين أظهرهم، إلا أنه بصدد أن يموت ، ولا يُدرى متى يموت ، كما أنه لا يؤمن أن يفنى حفظه في أي ساعة ، وقد مرَّ أن سبعين منهم قتلوا في بئر معونة ، ومثلهم أو يزيد قتلوا في وقعة اليمامة ، (٥) فافتضى ذلك أن يُكتب القرآن بمجرد نزوله (٦) .

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب قول الله ﷻ [لا يستوي القاعدون ...] (٥٣/٦) ح ٢٨٣٢ ، ومسلم في صحيحه كتاب الإمامة باب سقوط فرض الجهاد عن المعنورين (٤٢/١٣-٤٣) ح ١٨٩٨ ، وأبو داود في سننه كتاب الجهاد باب في الرخصة في القعود من الغزى (١١/٣) ح ٢٥٠٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (١/٣) ، ومحاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٢٢٣٠/٦) .

(٣) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٤) سورة المائدة، الآية ٦٧ .

(٥) راجع مبحث الحفاظ من الصحابة .

(٦) مناهل العرفان (٣٦٢/١) .

مواد الكتابة في العصر النبوي :

كان أصحاب النبي ﷺ يستعملون في كتابة القرآن كل ما توفر في بيئتهم وتيسر لهم من أدوات الكتابة كالجلود والعظام والحجارة ونحوها ، فكانوا يكتبون القرآن على الرقاع (١) ، والأكتاف (٢) ، والعُسب (٣) ، واللخاف (٤) والأضلاع (٥) والأقتاب (٦) ، والألواح (٧) ، وقطع الأديم (٨) ، والكرانيف (٩) .

عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : فَتَنَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالْأُكْتَفِ وَالْعُسْبِ (١٠) . وفي رواية : فَتَنَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسْبِ وَالرِّقَاعِ وَاللِّخَافِ (١١) . وفي رواية : ومن الأضلاع ، وفي رواية : والأقتاب (١٢) . وعن البراء بن عازب قال : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ادْعُ لِي زَيْدًا وَلِيَجِيءَ بِاللَّوْحِ وَالِدَوَاةِ وَالْكَتِفِ أَوْ الْكَتِفِ وَالِدَوَاةِ (١٣) . وعن يزيد بن عبد الله قال : كُنَّا بِالْمَرْبَدِ فَجَاءَ رَجُلٌ أَشْعَثُ الرَّأْسِ بِيَدِهِ قِطْعَةً أَدِيمٍ أَحْمَرَ ، فَقُلْنَا : كَأَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ؟ فَقَالَ : أَجَلٌ ، قُلْنَا : نَاوَلْنَا هَذِهِ الْقِطْعَةَ الْأَدِيمَ الَّتِي فِي يَدِكَ ، فَنَاوَلَنَاهَا فَقَرَأَنَاهَا فَإِذَا فِيهَا : مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْنَا بَنِي زُهَيْرٍ بْنُ أَقْبَيْشٍ (١٤) .

-
- (١) الرقاع جمع رُقْعَة ، وهي التي يكتب فيها ، وتكون من جلد أو كاغد . لسان العرب مادة (رقع) (١٧٠٥/٣) .
- (٢) الأكتاف جمع كَتَفٍ ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . النهاية في غريب الحديث (١٥٠/٤) .
- (٣) العسب جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون في الطرف العريض ، وقيل العسيب طرف الجريدة العريض الذي لم ينبت عليه الخوص ، والذي ينبت عليه الخوص هو السعف . النهاية في غريب الحديث (٢٣٤/٣) ، ولسان العرب مادة (عسب) (٢٩٣٦/٤) .
- (٤) اللخاف جمع لَخْفَةٍ ، وهي صفائح الحجارة البيض الرقاق ، فيها عرض ودقة ، وقيل هي الخزف يصنع من الطين المشوي . وقد فسرها بعض الرواة بالحجارة . كتاب المصاحف لابن أبي داود ص ١٤ ، ١٣ .
- (٥) الأضلاع هي عظام الجنبين ، جمع ضِلْعٍ ، وهو محنيّة الجنب . لسان العرب مادة (ضلع) (٢٥٩٨/٤) .
- (٦) الأقتاب جمع قَتَبٍ بفتح تين ، وهو الخشب الذي يوضع ظهر البعير ليركب عليه . فتح الباري (٦٣٠/٨) .
- (٧) الألواح جمع لَوْحٍ ، وهو كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب ، والكتف إذا كتب عليها سميت لوحًا . لسان العرب مادة (لوح) (٤٠٩٥/٥) .
- (٨) الأديم هو الجلد ما كان ، وقيل الأحمر منه ، وقيل هو المدبوغ . لسان العرب مادة (أدم) (٤٥/١) .
- (٩) الكرانيف جمع كُرْنِافَةٍ ، وهي أصل السَّعْفَةِ الغليظة . النهاية في غريب الحديث (١٦٨/٤) .
- (١٠) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب { لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... } (١٩٤/٨-١٩٥) ح ٤٦٧٩ .
- (١١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام باب يستحب للكاتب أن يكون أمينًا (١٩٥/١٣) ح ٧١٩١ .
- (١٢) رواهما ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص ١٤ ، ١٥ .
- (١٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن باب كَاتِبِ النَّبِيِّ ﷺ (٦٣٧/٨-٦٣٨) ح ٤٩٩٠ .
- (١٤) رواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء باب مَا جَاءَ فِي سَهْمِ الصَّقِيِّ (١٥٣/٣) ح ٢٩٩٩ .

قال ابن الأثير: وحديث الزهري : والقرآن في الكرانيف ، يعني أنه كان مكتوباً عليها قبل جمعه في الصحف (١) ، هذه الآثار وغيرها تدلنا على عظيم بلاء الصحابة رضي الله عنهم في كتابة القرآن ، وما تحملوه من المشقات ، حيث إن مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة ، كما أن الموجود منها لم يكن سهل الاستعمال ، بل كان يحتاج إلى جهد كبير في التجهيز والإعداد وبقي القرآن مكتوباً على هذه الأشياء محفوظاً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يجمع في صحف أو مصاحف في ذلك العهد (٢) ، قال القسطلاني : (٣) وقد كان القرآن كله مكتوباً في عهده صلى الله عليه وسلم ، لكن غير مجموع في موضع واحد ، ولا مرتب السور (٤) .

(١) النهاية في غريب الحديث (١٦٨/٤) .

(٢) مناهل العرفان (٢٤٧/١) . (٣٦٨/١) .

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني القتيبي المصري ، ولد سنة ٨٥١ هـ ، له تصانيف عظيمة ، منها إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ولطائف الإشارات في علم القراءات، وغيرها من المصنفات المفيدة .

توفي سنة ٩٢٣ هـ . الأعلام للزركلي (٢٣٢/١) .

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٤٦/٧) ، وانظر دليل الحيران شرح مورد الظمان في رسم القرآن

للمارغني ص ١٧

المطلب الثاني

أسباب عدم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد :

توفي النبي ﷺ والقرآن مفرقاً في الرقاع والعصب والعظام والأحجار ، ولم يُجمع القرآن في زمنه ﷺ في صحف ولا مصاحف :

فعن زيد بن ثابت ؓ قال: قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَلَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ جُمِعَ فِي شَيْءٍ (١).
قال السيوطي: ولا ينافي ذلك ؛ (٢) لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة (٣).
قال القسطلاني : وقد كان القرآن كله مكتوباً في عهده ﷺ ، لكن غير مجموع في موضع واحد ، ولا مرتب السور (٤) .

وإنما ترك النبي ﷺ جمع القرآن في مصحف واحد لاعتبارات كثيرة ، منها (٥) :

- ١ - أنه لم يوجد من دواعي كتابته مجموعاً في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر ؓ حتى كتبه في صحف ، ولا مثل ما وجد في عهد عثمان ؓ حتى نسخه في مصاحف ، فالمسلمون وقتئذٍ بخير والقراء كثيرون ، والإسلام لم تنتسح دولته ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة والنبي ﷺ بين أظهرهم ، وعنايته باستظهار القرآن تفوق الوصف فلا خوف على ضياع شيء منه في تلك المدة .
- ٢ - أن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله نسخه من القرآن ، ولو جمع القرآن في مصحف واحد وقتئذٍ لكان عرضة لتغيير المصاحف كلما وقع نسخ .

(١) انظر فتح الباري (٦٢٧/٨)، والإتقان في علوم القرآن (١٦٤/١)، ورواه الطبري عن الزهري مرسلاً مرفوعاً، تفسير الطبري، المقدمة (٢٨/١).

(٢) يعني أن القرآن كان مكتوباً زمنه ﷺ .

(٣) يعني أن الذي نفاه زيدٌ من الجمع هو جمع متفرق القرآن في صحف، وجمع الصحف في المصاحف، كتابة جميع القرآن. انظر الإتقان في علوم القرآن (١٦٤/١).

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٤٦/٧) ، ودليل الحيران شرح مورد الظمان في رسم القرآن للمارغني ص ١٧.

(٥) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٤٦/٧)، والإتقان (١٦٤/١)، ومناهل العرفان (٢٤٨/١-٢٤٩) ودليل الحيران شرح مورد الظمان في رسم القرآن للمارغني ص ١٧، ودلائل النبوة (١٥٤/٧) .

من قام بالجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه

مرّ فيما سبق أن الذي أشار بجمع القرآن كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أبا بكر ندب لهذه المهمة زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

وقد بين أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسباب اختياره زيد بن ثابت في الحديث الذي أسلفناه حيث قال له : إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا نَتَهَمُكَ ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَتَتَّبِعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ (١) ، وقد ورد أيضاً أن زيد بن ثابت كان قد حضر العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، كما مرّ ، أضف إلى ذلك أن زيد بن ثابت كان ممن جمع القرآن حفظاً في صدره في حياة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قُلْتُ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ : مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُكْنَى أَبَا زَيْدٍ (٢) .

فتبين أن أبا بكر رضي الله عنه إنما اختار لهذه المهمة الشاقة زيد بن ثابت للأسباب الآتية(٣):

- ١ - أنه كان شاباً ، وفي ذلك خصال توافق غرض الصديق ، حيث إن الشاب أقوى وأجلد على العمل الصعب من الشيخ ، كما أن الشاب لا يكون شديد الاعتداد برأيه ، فعند حصول الخلاف يسهل قبوله النصيحة والتوجيه (٤) .
- ٢ - أن زيد بن ثابت كان معروفاً بوفرة عقله، وهذا ممّا يؤهله لإتمام هذه المهمة الجسيمة.
- ٣ - أنه كان غير متهم في دينه ، فقد كان معروفاً بشدة الورع ، والأمانة وكمال الخلق والاستقامة في الدين .
- ٤ - أنه كان يلي كتابة الوحي لرسول الله ﷺ ، ويرى إملاء رسول الله ﷺ فكان يشاهد من أحوال القرآن ما لا يشاهده غيره ، وهذا يؤهله أكثر من غيره ليكتب القرآن ويجمعه.
- ٥ - أنه كان حافظاً للقرآن الكريم عن ظهر قلب، وكان حفظه في زمن النبي ﷺ على العرضة الأخيرة .

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب باب مناقب زيد بن ثابت ح ٣٨١٠. صحيح البخاري مع فتح الباري (١٥٩/٧)، وفي فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ح ٥٠٠٤ (٦٦٣/٨)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بن كعب. انظر صحيح مسلم مع شرح النووي (١٩/١٦) ح ٢٤٦٥.

(٣) وانظر في ذلك أيضاً: مقدمة كتاب المبانى ص ٢٥، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ص ٢٧١.

(٤) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٣٦٩ .

٦ - أنه فيما روي كان ممن شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم ، كما مرَّ علينا (١) .
وقد كان زيد بن ثابت رضي الله عنه جديرًا بهذه الثقة ، ويدل على ذلك قوله لما أمره أبو بكر بجمع القرآن: **قَوَّ الله ! لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ** (٢) ، قال ابن حجر: وإنما قال زيد بن ثابت ذلك لما خشية من التقصير في إحصاء ما أمر بجمعه ، لكن الله تعالى يسر له ذلك، كما قال تعالى : (٣)

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ

وشرع زيد بن ثابت يجمع القرآن من الرقاع واللخاف والعظام والجلود وصدور الرجال ، وأشرف عليه وعاونه في ذلك أبو بكر وعمر وكبار الصحابة(٤) فقد شارك في العمل في هذا الجمع عدد من كبار الصحابة، منهم عمر بن الخطاب وأبي بن كعب وغيرهما .
فعن عروة بن الزبير قال : لما استحرَّ القتل بالقراء يومئذٍ ، فرَّق أبو بكر على القرآن أن يضيع ، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه (٥) .
وعن أبي العالية عن أبي بن كعب أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويُملي عليهم أبي بن كعب (٦) ، وبهذه المشاركة أخذ هذا الجمع الصفة الإجماعية ، فقد اتفق عليه الصحابة رضي الله عنهم وتعاونوا على إتمامه على أكمل وجه .

من قام بجمع القرآن الكريم في عهد عثمان رضي الله عنه

انعقد عزم الصحابة رضي الله عنهم - بعد ما رأوا من اختلاف الناس في القراءة - على أن يجمعوا القرآن ، ويرسلوا منه نسخًا إلى الأمصار ، لتكون مرجعًا للناس يرجعون إليه عند الاختلاف ، فانتدب عثمان بن عفان رضي الله عنه لذلك اثني عشر رجلاً وأمرهم بأن يكتبوا القرآن في المصاحف، وأن يرجعوا عند الاختلاف إلى لغة قريش .

(١) في مبحث العرضة الأخيرة للقرآن الكريم .

(٢) سبق تخريجه قريبًا .

(٣) من الآية ١٧ من سورة القمر . وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٦٢٩/٨) .

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢٥٠/١) .

(٥) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع أبي بكر القرآن في المصاحف ص ١٢ ، قال الحافظ ابن حجر:

رجاله ثقات مع انقطاعه . فتح الباري (٦٣٠/٨) .

(٦) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع أبي بكر القرآن في المصاحف ص ١٥ ، وفي باب خبر قوله ﷺ [لقد جاءكم رسول] ص ٣٨ ، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن باب فيما نزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة .

عن محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قریش والأنصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت (١). والذي يظهر أن عثمان رضي الله عنه انتدب رجلين فقط أول الأمر ، هما زيد بن ثابت وسعيد بن العاص ، كما جاء عن علي بن أبي طالب - في قصة جمع القرآن زمن عثمان - أنه قال : فقيل : أي الناس أفصح ؟ وأي الناس أقرأ ؟ قالوا : أفصح الناس سعيد بن العاص وأقرأهم زيد بن ثابت ، فقال عثمان : ليكتب أحدهما ويُملي الآخر ، ففعلا ، وُجمع الناس على مصحف (٢) .

قال الحافظ ابن حجر: بإسناد صحيح (٣).

فالظاهر أنهم اقتصرُوا عليهما أول الأمر للمعنى المذكور في هذا الأثر ، ثم لما احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي تُرسل إلى الآفاق أضافوا إلى زيد وسعيد عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فعن أنس أن عثمان دعا زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن فكعاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها (٤) في المصاحف ، وقال عثمان للرُّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قریش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك (٥) .

ثم أضافوا بعد ذلك آخرين بحسب ما كانوا يحتاجون إليه من الإملاء والكتابة وكان منهم أبي كعب الذي احتاجوا إليه للاستظهار ، كما ورد في رواية محمد بن سيرين السابقة .

وقد وقع في الروايات الواردة تسمية تسعة من هؤلاء الإثني عشر رجلاً ، وهم :

١ - زيد بن ثابت . ٢ - عبد الله بن الزبير .

٣ - سعيد بن العاص (٦) . ٤ - عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (٧)

(١) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان رحمة الله عليه المصاحف ص ٣٣ ، وأورده الحافظ ابن كثير من طريق ابن أبي داود ، وقال : إسناده صحيح . فضائل القرآن ص ٤٥ .

(٢) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف ص ٣٠ .

(٣) فتح الباري (٨/٦٣٤) .

(٤) يعني الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب باب نزل القرآن بلسان قریش (٦/٦٢١) ح ٣٥٠٦ .

(٦) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، له صحبة ، توفي النبي ﷺ وله تسع سنين ، وكان أميراً شريفاً ، ذا حلم وعقل يصلح للخلافة ، ولي إمرة المدينة لمعاوية رضي الله عنه ثم ولي إمرة الكوفة ، وغزا طبرستان ففتحها ، وكان أحد من نديهم عثمان رضي الله عنه لكتابة المصاحف ؛ لفصاحته وشبه لهجته بلهجة رسول الله ﷺ ، مات سنة سبع أو ثمان وخمسين . سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٤٤٤) ، وطبقات ابن سعد (٥/٣٠) ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/٣٩١) .

(٧) من أشرف بني مخزوم، توفي النبي ﷺ وهو ابن عشر سنين ، وكان من نبلاء الرجال ، ومن فضلاء المسلمين وخيارهم علماً وديناً وعلو قدر ، شهد الجمل مع عائشة ، وكان صهراً لعثمان ، توفي في خلافة معاوية . أسد الغابة (٣/٣٢٧) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٤٨٤) .

وهؤلاء هم الأربعة المذكورون في حديث أنس بن مالك السابق قريباً.

٥ - أبي بن كعب، كما في حديث كثير المتقدم أيضاً.

٦ - أنس بن مالك .

٧ - عبد الله بن عباس (١) .

٨ - مالك بن أبي عامر، (٢) جد مالك بن أنس، ثبت ذلك من روايته (٣).

وقال الإمام مالك بن أنس: كان جدِّي مالك بن أبي عامر ممن قرأ في زمان عثمان، وكان يُكتبه المصاحف (٤).

٩ - كثير بن أفلح، (٥) كما في حديث ابن سيرين المتقدم.

وفيه قول محمد بن سيرين : فقلت لكثير - وكان فيهم (فيمن يكتب) : هل تدرون لم كانوا يُؤخرونه ؟ قال : لا ، قال محمد : فظننت أنهم إنما كانوا يُؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الآخرة ، فيكتبونها على قوله (٦) . وقد روي عن أبي المليح عن عثمان رضي الله عنه أنه حين أراد أن يكتب المصحف قال : تملُّ (٧) هذيل ، وتكتبُ ثَقِيفٌ (٨) . وعن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يُملِّينَ في مصاحفنا إلاَّ غلمانُ قُرَيْشٍ وثَقِيفٍ (٩).

أما الأثر الوارد عن عمر بن الخطاب ، فلا مدخل له هنا ، إذ عمر قد مات قبل أن تكتب المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ، وأما الأثر الوارد عن عثمان ، فإنه منقطع ؛ لأن أبا المليح لم يلق عثمان (١٠) ، كما أن فيه نكارةً ، لأنه مخالف للواقع فليس فيمن ورد تسميتهم في الروايات أحدٌ من ثَقِيفٍ أو هذيلٍ ، بل كلهم إما قُرَشِيٌّ وإما أنصاريٌّ (١١) .

(١) قال الحافظ ابن حجر عن مشاركة ابن عباس وأنس بن مالك في الكتابة: وقع ذلك في رواية إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن ابن شهاب . فتح الباري (٦٣٥/٨) .

(٢) من كبار التابعين وعلمائهم، وأبوه أبو عامر بن عمرو بن الحارث، صحابي شهد المغازي كلها ما خلا بدرًا، وهو أحد الذين حملوا الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ليلاً إلى قبره. تهذيب التهذيب (١٩/١٠) .

(٣) انظر المصاحف لابن أبي داود ص ٢٩ .

(٤) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف ص ٣٤ .

(٥) مولى أبي أيوب الأنصاري، قُتل في وقعة الحرة سنة ٦٣هـ. شذرات الذهب (٧١/١) .

(٦) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان رحمة الله عليه المصاحف ص ٣٣، وأورده الحافظ ابن كثير من طريق ابن أبي داود، وقال: إسناده صحيح. فضائل القرآن ص ٤٥ .

(٧) أي تملئ، قال تعالى: ﴿ فليكتب وليملل الذي عليه الحق ﴾ . البقرة ٢٨٢. قال الجوهر في الصحاح: وأمل عليه أيضاً، بمعنى أملئ . يُقال : أملت عليه الكتاب . الصحاح (مل) (١٨٢١/٥) .

(٨) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف ص ٣٤ .

(٩) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف: باب جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المصحف ص ١٧ .

(١٠) انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٣٤/٣١٦-٣١٧) .

(١١) انظر فتح الباري (٦٣٥/٨) .

وَمِمَّنْ وَرَدَ تَسْمِيَتُهُمْ أَيْضاً فَيَمُنْ شَارَكَ فِي هَذَا الْجَمْعِ بِالْكِتَابَةِ أَوْ الْإِمْلَاءِ:

عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبان بن سعيد بن العاص (١)
وأبان بن سعيد بن العاص ، هو عمُّ سعيد بن العاص - أحد الأربعة الذين اختيروا للجمع ،
وقد ورد أنه شارك في هذا الجمع :

فعن عُمارة بن غَزِيَّة عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت أنه قال:
فَأَمَرَنِي عُثْمَانُ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ مُصْحَفًا ، وَقَالَ إِنِّي جَاعِلٌ مَعَكَ رَجُلًا لَبِيًّا فَصِيحًا ، فَمَا اجْتَمَعْتُمَا
عَلَيْهِ فَاكْتُبَاهُ ، وَمَا اخْتَلَفْتُمَا فِيهِ فَارْفَعَاهُ إِلَيَّ ، فَجَعَلَ مَعَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ (٢) .

وأبان بن سعيد بن العاص قتل في سنة اثنتي عشرة يوم أجنادين ، قبل وفاة أبي بكر بقليل أو
سنة أربع عشرة يوم مرج الصفر ، في صدر خلافة عمر ، وقيل إنه توفي سنة تسع وعشرين
، والأول قول أكثر أهل النسب (٣) .

قال الحافظ : ووقع في رواية عُمارة بن غَزِيَّة "أبان بن سعيد بن العاص" بدل "سعيد" ، قال
الخطيب : ووهم عُمارة في ذلك ؛ لأن أبان قُتِلَ بالشام في خلافة عمر ، ولا مدخل له في هذه
القصة ، والذي أقامه عثمان في ذلك هو سعيد بن العاص - ابن أخي أبان المذكور اهـ (٤) .

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٢٥٨ ، شيخ القراء محمد بن علي بن خلف الحسيني الشهير بالحداد في كتابه :
الكواكب الدرية ص ٢١ .

(٢) رواه الطحاوي في تأويل مشكل الآثار . (١٩٣/٤) .

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٤٧/١) .

(٤) فتح الباري (٦٣٥/٨) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٩/١) .

الفصل الثاني

موقف علماء السلف من ظواهر رسم القرآن الكريم

إن تلك الجهود العظيمة التي عرضنا أهمها في الفصول السابقة لتثير الدهشة والإعجاب لكثرتها وتواليها على تعاقب القرون ، وتثير - أيضاً - الإجلال والإعزاز لأولئك الأئمة الذين أدوا إلينا بأمانة دقائق هذا الموضوع وتفصيلاته وحاولوا جاهدين أن يعطوا التفسير الصحيح - على تفاوت بينهم في ذلك - لظواهر الرسم العثماني ، فكان لعلماء الرسم والقراءات أولاً ولعلماء العربية ثانياً مواقف وأقوال في هذا الصدد ، سواء فيما يتعلق بالتزام الرسم في كتابة المصاحف أم بدراسة الظواهر نفسها ومحاولة إعطاء التفسير المحتمل لها ..

أولاً : موقفهم من التزام الرسم العثماني في كتابة المصحف :

اختلف العلماء هل رسم المصاحف توقيفي من النبي ﷺ ، أم اجتهادي ؟ فأما الذين ذهبوا إلى أن الرسم توقيفي ، فلم يجيزوا مخالفته ، وأما القائلون بأنه اجتهاد واصطلاح من الصحابة ، فاختلفوا ، فمنهم من أوجب اتباع اصطلاحهم ومنهم من جَوَّز مخالفته ، وجوز كتابة القرآن على غيره ، ومنهم من أوجب كتابة المصاحف على الرسم القياسي منعاً للبس ، فتلخص أن العلماء في الرسم العثماني على مذهبين :

مذهب يوجب اتباعه (سواء من قال بالتوقيف ومن قال بأنه اصطلاح واجب الإتياع) ، ومذهب يرى جواز رسم المصاحف على غير الرسم العثماني ، وبعضهم يوجب ذلك .

المذهب الأول : أن رسم القرآن توقيفي ، فلا تجوز مخالفته ، ولا تجوز كتابة المصحف إلا على الكتابة الأولى ، وهو مذهب الجمهور ، واستدلوا على ذلك بأدلة ، منها :

١ - إقرار النبي ﷺ هذه الكتابة ، فقد كان للنبي ﷺ كُتَّاب يكتبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن على هذا الرسم بين يديه ، ﷺ وأقرهم على تلك الكتابة ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكتابة ، لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل.


٢ - ما ورد من أن النبي ﷺ كان يوقف كُتَّابه على قواعد رسم القرآن ويوجههم في رسم القرآن وكتابته .

أ- فعن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ ، فقال له : أَلِقِ الدَّوَاةَ ، (١) وحرِّفِ الْقَلَمَ ، وأَقِمِ الْبَاءَ ، وفرِّقِ السَّيْنَ ، ولا تعرِّ الميم وحسِّنِ (الله) ، ومدِّ (الرحمن) ، وجوِّدِ (الرحيم) (٢) .

(١) أَلِقِ الدَّوَاةَ فَلَاقَتْ: لَزَقَ الْمَدَادَ بِصُوفِهَا. لسان العرب (ليق) (٤١١٥/٥) .

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٣٥٧/١-٣٥٨)

ب- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إذا كتب أحدكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  فليمدَّ الرحمن (١).

- ٣ - إجماع الصحابة على ما رسمه عثمان في المصاحف، وعلى منع ما سواه .
- ٤ - إجماع الأمة المعصوم من الخطأ بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين على تلقّي ما نُقل في المصاحف العثمانية التي أرسلها إلى الأمصار بالقبول ، وعلى ترك ما سوى ذلك (٢) .

فهذا إجماعٌ من الأمة على ما تضمنته هذه المصاحف وعلى ترك ما خالفها من زيادة ونقص ، وإبدال كلمةٍ بأخرى ، أو حرفٍ بآخر ، ولذلك جعل الأئمة موافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً شرطاً لقبول القراءة ، فقالوا : كل قراءة ساعدها خط المصحف، مع صحة النقل ومجيئها على الفصح من لغة العرب فهي المعتبرة (٣) وممن حكى إجماع الأمة على ما كتب عثمان رضي الله عنه الإمام أبو عمرو الداني ، وروى بإسناده عن مصعب بن سعد قال : أدركت الناس حين شقّق عثمان رضي الله عنه المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، أو قال : لم يعب ذلك أحدٌ (٤) . وقال القاضي عياض : أجمع المسلمون على أن من نقص حرفاً قاصداً لذلك أو بدله بحرف مكانه ، أو زاد فيه حرفاً ممّا لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع عليه الإجماع ، وأجمع على أنه ليس من القرآن -عامداً لكل هذا ، فهو كافر (٥) .

قال البيهقي : من كتَب مصحفاً ، فينبغي أن يحافظ على الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف ولا يخالفهم فيها ، ولا يغير ممّا كتبوه شيئاً ؛ فإنهم كانوا أكثرَ علماً وأصدقَ قلباً ولساناً وأعظمَ أمانةً ممّا ، فلا ينبغي لنا أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم ، ولا تسقطُ لهم (٦) . وعن زيد بن ثابت قال : القراءة سنةٌ ، قال سليمان بن داود الهاشمي: يعني ألا تخالف الناس برأيك في الإتياع (٧) .

(١) رواه الديلمي في مسنده، انظر فردوس الأخبار (٣٦٤/١) ح ١١٧٤ .

(٢) الكواكب الدرية ص ٣٤ .

(٣) الكواكب الدرية ص ٣٤ .

(٤) رواه الداني في المقنع في معرفة مرسوم مصاحف الأمصار ص ١٨، ورواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف، ص ١٩، ولفظه: ولم ينكر ذلك منهم أحدٌ .

(٥) الشفا بتعريق حقوق المصطفى (٦٤٧/٢) .

(٦) الجامع لشعب الإيمان (٦٠٠/٥) .

(٧) رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٦٠٠/٥)، وفي السنن الكبرى (٣٨٥/٢)، والحاكم في المستدرک (٢٢٤/٢) وصححه ووافقه الذهبي .

قال البيهقي : إنما أراد — والله أعلم — أن اتباع مَنْ قبلنا في الحروف وفي القراءات سنة متبعة ، ولا يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام ، ولا مخالفة القراءة التي هي مشهورة ، وإن كان غير ذلك سائغاً في اللغة ، أو أظهر منها (١) .

وقال أيضاً: وبمعناه بلغني عن أبي عبيد في تفسير ذلك ، قال: وترى القراء لم يلتفتوا إلى مذاهب العربية في القراءة ، إذا خالف ذلك خط المصحف ، وزاد: واتباع حروف المصاحف عندهم كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها (٢)

ونقل أحمد بن المبارك (٣) عن شيخه عبد العزيز الدباغ (٤) أنه قال:

ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة ، بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار لا تهتدي إليها العقول ،... وهو سر من أسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية ،... وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز (٥) ، قال ابن درستويه : خطن لا يُقاس عليهما : خط المصحف ، وخط تقطيع العروض ...

ووجدنا كتاب الله — جل ذكره — لا يُقاس هجاؤه ، ولا يُخالف خطُّه ولكنه يُتلقى بالقبول على ما أودع المصحف (٦) والقول بعدم جواز كتابة المصحف على غير الرسم العثماني هو قول أهل المذاهب الفقهية الأربعة ، قال العلامة محمد بن العاقب الشنقيطي (٧)

رسم الكتاب سنة متبعة كما نحا أهل المناحي الأربعة

وقد نقل الإمام الجعبري ، وغيره إجماع الأئمة الأربعة على وجوب اتباع رسم المصحف العثماني .

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣٨٥/٢) .

(٢) الجامع لشعب الإيمان (٦٠١/٥) ، وانظر البرهان في علوم القرآن (٣٨٠/١) .

(٣) أحمد بن المبارك السلجماسي الممطي ، فقيه مالكي ، عارف بالحديث ، ولد في سلجماسنة ١٠٩٠ هـ ، ١٦٧٩م ونشأ فيها ، ثم انتقل إلى فاس ، فقرأ وأقرأ ، حتى صرح لنفسه بالاجتهاد المطلق ، وتوفي بفاس سنة ١١٥٦ هـ ، ١٧٤٣م . الأعلام (٢٠١/١-٢٠٢) .

(٤) عبد العزيز بن مسعود الدباغ الإدريسي الحسني ، متصوف من الأشراف الحسينيين ، ولد بفاس سنة ١٠٩٥ هـ ، ١٦٨٤م ، كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ، ونقل الخوارق عنه ، توفي بفاس سنة ١١٣٢ هـ ، ١٧٢٠م . الأعلام (٢٨/٤) .

(٥) أحمد بن المبارك السلجماسي في كتابه: الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز ص ١٠١ .

(٦) البرهان في علوم القرآن (٣٧٦/١) ، نقلاً عن الكتاب لابن درستويه ص ٧ .

(٧) انظر التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية للدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ ص ٢٧ .

وفيما يأتي أقوال بعض فقهاء المذاهب الأربعة في هذه المسألة (١):

- **الأحناف:** قال في المحيط البرهاني: إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني (٢)
- **المالكية:** سئل مالك رحمه الله: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال : لا إلا على الكتبة الأولى (٣) قال السخاوي :
والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه بقاء الحالة الأولى ، إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأخرى بعد الأخرى ، إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى (٤) قال أبو عمرو الداني: ولا مخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك (٥) وقال أبو عمرو الداني أيضاً:

سئل مالك عن الحروف تكون في القرآن مثل الواو والألف أترى أن تُغَيَّر من المصحف إذا وجدت فيه كذلك؟ قال: لا (٦)

قال أبو عمرو: يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم، المعدومتين في اللفظ، نحو الواو في: ﴿أُولَئِكَ﴾ و﴿أُولَئِكَ﴾ و﴿أُولَئِكَ﴾ ونحو الألف في: ﴿نَدْعُوا﴾ و﴿وَلَا وَضَعُوا﴾ (٧) .

- **الشافعية:** قال الشيخ سليمان الجمل : (الربا) تكتب بهما ، أي : الواو والألف معاً ، فتكتب الواو أولاً في الباء ، والألف بعدها ، وهذه طريقة المصحف العثماني وقوله: "وبالياء" ، أي: في غير القرآن ؛ لأن رسمه سنة متبعة (٨) .

(١) بحث في المصاحف العثمانية للدكتور محمود سيبويه البدوي، مجلة كلية القرآن الكريم بالمدينة المنورة، العدد الأول ص ٣٤٥ ، نقلاً عن خميلة أرباب المقاصد شرح عقيلة أتراب القوائد للإمام الجعبري .

(٢) مناهل العرفان (٣٧٩/١) .

(٣) المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار ص ١٩ ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة ص ٩

(٤) مناهل العرفان (٣٧٩/١) .

(٥) المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار ص ١٩ .

(٦) المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار ص ٣٦ ، والبرهان في علوم القرآن (٣٧٩/١) ، ومناهل العرفان (٣٧٩/١) .

(٧) المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار ص ٣٦ ، والبرهان في علوم القرآن (٣٧٩/١) ، ومناهل العرفان (٣٧٩/١) ، وقد اختلفت المصاحف في هذه الكلمة ، ففي بعضها بألف بعد الهمزة ، وفي بعضها بغير

ألف ، والعمل على إسقاط الألف . انظر دليل الحيران شرح مورد الظمان ص ٢٤٥ .

(٨) حاشية الجمل على شرح المنهج، للشيخ سليمان الجمل (٤٤/٣) .

- **الحنابلة** : قال الإمام أحمد بن حنبل : يحرم مخالفة مصحف الإمام في واوٍ أو ألفٍ أو ياءٍ أو غير ذلك (١) .

المذهب الثاني : أن رسم المصاحف اصطلاحى لا توقيفى، وعليه فتجوز مخالفته .
وممن جرح إلى هذا الرأي وأيده ابن خلدون في مقدمته، والقاضي أبو بكر في الانتصار (٢)، واستدل القائلون بهذا الرأي بأدلة منها:

١- أن الرسوم والخطوط ما هي إلا علامات وأمارات ، فكل رسم يدل على الكلمة ، ويفيد وجه قراءتها ، فهو رسم صحيح .

٢- أن كتابة المصحف على الرسم العثماني قد توقع الناس في الحيرة والخطأ والمشقة والحرَج ، ولا تمكنهم من القراءة الصحيحة السليمة.

٣- أنه ليس في الكتاب العزيز ، ولا السنة المطهرة ، ولا في إجماع الأمة ، ولا في قياس شرعي ما يدل على وجوب كتابة المصحف برسم معين ، وكيفية مخصوصة ولم يرو عن الرسول ﷺ أنه أمر أحداً من كتاب الوحي حين كتابة الآيات القرآنية أن يكتبها برسم خاص ولا نهى أحداً أن يكتبها بهيئة معينة .

قال ابن خلدون : (فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرُّكاً بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله تعالى وكلامه ، كما يُقتفى لهذا العهد خطٌ وليٌّ أو عالم تبرُّكاً، ويُتبع رسمه خطأً أو صواباً، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ؟ فاتبع ذلك وأُثبت رسماً ، ونبّه العلماء بالرسم إلى مواضعه .

قال : ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يقولون في زيادة الألف في ﴿ لا أذبحنه ﴾ إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفي مثل زيادة الياء ﴿ بأبيد ﴾ إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادته الخط، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه ، وليس ذلك بصحيح

اهـ . (٣)

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٧٩)، و الإتقان (٤/١٤٦).

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ١٢٩، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/٤٢٠-٤٢١).

(٣) مقدمة ابن خلدون (مقدمة تاريخ بن خلدون) ص ٤١٩ .

حكم إتباع الرسم العثماني موقف العلماء من رسم القرآن الكريم

كتب الصحابة رضوان الله عليهم المصاحف بما كان متعارفاً عليه في زمنهم من قواعد الهجاء وأصول الرسم وكان أكثر الصحابة ومن وافقهم من التابعين وتابعيهم يوافقون الرسم العثماني في كل ما يكتبون ، ولو لم يكن قرآناً ولا حديثاً واستمر الأمر على ذلك عهداً طويلاً فكانوا يرسمون الألف واواً في الصلوة والزكوة والحيوة كما يقول ابن قتيبة (أدب الكاتب ص ٢٥٣) ، ويبدو أن محاولات جرت منذ وقت مبكر لإدخال بعض صور الكلمات المستعملة عند الكتابة في المصحف فيروي الداني أن إمام المدينة مالكا (ت ١٧٩هـ) رحمه الله ، سئل فقيل له: "أرأيت متى استكتب مصحفاً اليوم أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم ، فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتابة الأولى " - المقنع للداني ص (٩-١٠) ، ويروى أيضاً أنه سئل عن الحروف التي تكون في القرآن مثل الواو والألف أترى أن تُغَيَّرَ من المصحف إذا وجدت فيه كذلك ؟ فقال : لا (المقنع ص ٢٨ ، وانظر القسطلاني ج ١ ص ٢٧٩) ، ويعقب الداني على ذلك بقوله : يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللفظ وقد أجمع العلماء على مثل ما ذهب إليه الإمام مالك (وقد قال الجعبري في شرح العقيلة إن ذلك هو مذهب الأئمة الأربعة ، انظر أحمد بن المبارك : الإبريز ط ١ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٦هـ ص ٥٩) فقد قال الداني بعد أن روى رأي مالك السابق " ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة " (الداني : المقنع ص ١٠ وانظر السيوطي : الإتيقان ج ٤ ص ١٤٦) ، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) قال : " تحرم مخالفة مصحف الإمام في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك " (الزركشي: البرهان ج ١ ص ٣٧٩ ، والسيوطي: الإتيقان ج ٤ ص ١٤٦) وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) في شعب الإيمان: "من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به هذه المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوا شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم" ، - السيوطي : الإتيقان ج ٤ ص ١٤٦ وانظر القسطلاني ج ١ ص ٢٧٩ والمهدوي ص ٧٥- وقال اللبيب في الدرة الصقيلة ص ٣٠ : "فما فعله صحابي واحد فلنا الأخذ به والافتداء بفعله والإتباع لأمره فكيف وقد اجتمع على كتاب المصاحف حين كتبوه نحو اثني عشر ألفاً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ؟ " ، وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وهو يعقب على رسم لام الجر مفصولة في قوله

تعالى في سورة الفرقان ٧: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي

فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٦٧﴾﴾

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي وخط المصحف سنة لا تغير - الكشف ج ٣ ص ٢٠٩ ، وانظر السيوطي همع الهوامع ج ٢ ص ٢٤٣ ورسالة في علم الخط له ص ٥٦ - ، ونتيجة لعجز بعض العلماء عن إدراك أسباب ورود بعض الكلمات مرسومة بهيئة تخالف اللفظ من زيادة حرف أو نقصه وذهب إلى أن رسم المصحف وهيئات صور الكلمات إنما هي توقيف عن النبي ﷺ وقد عبر عن هذا المذهب بكل أبعاده الشيخ عبد العزيز الدباغ (١٠٩٠-١١٥٥هـ) فيما نقله عنه تلميذه أحمد بن المبارك (١٠٩٠-١١٥٥هـ) في كتاب الإبريز بقوله: "ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة وإنما هو بتوقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهدي إليها العقول .. وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية.. وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز ، وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في (مائة) دون (فئة) وإلى سر زيادة الياء في (باييد).

الرأي الراجح:

والرأي الذي تطمئن إليه النفس هو رأي الجمهور الذين ذهبوا إلى أن خط المصاحف توقيف ، ولا تجوز مخالفته ، ويترجح هذا الرأي بإجماع الصحابة ومن بعدهم على كتابة المصاحف على هذه الهيئة المعلومة ، وعلى رفض ما سواها فلا يُعتبر بعد إجماع أهل القرون الأولى خلاف من خالف بعد ذلك ، ولا يجوز خرق إجماعهم ؛ لأن الإجماع لا يُنسخ ، ويؤيد ذلك أن الرسم الإملائي اصطلاح والاصطلاح قد يتغير مع تغير الزمان ، كما أن قواعد الإملاء تختلف فيها وجهات النظر ، فيؤدي ذلك إلى التحريف والتبديل في كلام الله ﷻ ، فلو أن أهل كل زمان اصطلاحوا في كتابة المصاحف على اصطلاح يناسب ما يألّفونه من قواعد الإملاء ، ثم أتى جيلٌ بعدهم فاصطلح على اصطلاح آخر يناسب ما استجدّ من القواعد ، وانقطعت صلة الأجيال المتتابعة بالمصاحف التي كتبها الصحابة لو حدث ذلك لوصلنا خلال عقود قليلة إلى نصٍّ مشوّه من القرآن وحينئذ لن يستطيع الناس تمييز القراءة الصحيحة من غيرها ، ويؤدي ذلك إلى تحريف كتاب الله ، ويحصل الشكُّ في جميعه ، فهذا الرسم العثماني هو أقوى ضمان لصيانة القرآن من التغير والتبديل ، ومِمَّا يؤيد كون خط المصاحف توقيف : أن

الصحابة عليهم السلام كتبوا الكلمة الواحدة في بعض المواضع بهيئة ، وفي مواضع أخرى بهيئة أخرى ، ولا يظن بعقل — فضلاً عن الصحابة العلماء النبلاء — أن يسمع الكلمة الواحدة فيكتبها مرة بهيئة ومرة بأخرى إلا أن يكون لذلك علة، ولا علة

هنا إلا التوقيف. فقد رسم الصحابة ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْأَحْجِمِ ﴾ في سورة الحج ٥١ بزيادة الألف ، ولم يزدوا الألف من نفس

اللفظ في سورة سبأ ٥، فرسموها هكذا: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وكذلك فعلوا في الأعراف ١٦٦ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّآ

ثُهُوًّا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ حيث كان قد رسموه بزيادة الألف ، ما عدا موضع الفرقان ٢١ فرسموه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ هكذا دون ألف ، وزادوا الألف بعد الواو في قوله ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ

وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا أَلَدَىٰ يَدَيْهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ في سورة البقرة ، ولم يزدوها في قوله ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ وكانت الله عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ في سورة النساء ٩٩.

وكذلك حذفوا بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض:

كحذف الألف من ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بيوسف ٢ والزخرف ٣ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وإثباتها في سائر

المواضع كقوله تعالى في آخر النمل ٩٢ ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ فَمِنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

وحذفوا الألف من **سَمَوَات** كقوله تعالى في نوح ١٥ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ﴾ و **سَمَوَات** حيث وقع في القرآن كقوله تعالى في سورة الملك ٣ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾ وأثبتوا الألف التي بعد واو السموات في فصلت ١٢ فقط ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۚ﴾ .

وأثبتوا الألف من **الْمِيعَاد** مطلقاً كقوله تعالى في آل عمران ٩ :

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۚ﴾ وحذفوها من الموضع الذي في الأنفال ٤٢ ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصَوٰى وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ ۚ وَلَكِنَّ لِّيقْضَىٰ لِلَّهِ أَمْرًا ۚ كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَىٰ ۚ عَن بَيِّنَةٍ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ﴾ .

وأثبتوها في **سِرَاجًا** كما هو في نوح ١٦ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۚ﴾ مطلقاً وحذفوها في الفرقان ٦١ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۚ﴾ .

وزادوا الألف بعد واو الجماعة في الأفعال حيث وقع في القرآن كقوله في الفرقان ٣٠ :

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۚ﴾ واستثنوا من ذلك ﴿بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ ۚ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا ۚ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ فَبَاءُ ۚ بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۚ﴾ في البقرة ٩٠ .

وفي النور ١١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١١

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٩ في الحشر

وفي البقرة ٢٢٦ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٢٢٦ وزادوا الألف في مائة

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ٢ في النور وفي عموم القرآن دون فئة ﴿وَمَن يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ﴾ ١٦ في الأنفال . وزادوا الواو في سورتي الأعراف ١٤٥ والأَنْبِيَاء ٣٧ :

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ١٤٥ في الأعراف ١٤٥ . وفي سورتي الأعراف ١٤٥ والأَنْبِيَاء ٣٧ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ١٤٥ .

وزادوا الياء في الذاريات ٤٧ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٤٧ . و ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ ٦ في القلم .

ولا فرق بين هذه الكلمات وغيرها مما لم يزدوا فيه الألف أو الواو أو الياء . فادعاء أن الصحابة اصطلحوا على هذا الرسم اتهام لهم بمخالفة النبي ﷺ ووصم بالجهل والتفريق بين المتماثلات ، وهذا مما لا يظن بأحد العقلاء - فضلاً عن صحابة خاتم الأنبياء .

قال الدباغ: وأما قول من قال: إن الصحابة اصطلموا على أمر الرسم المذكور فلا يخفى ما فيه من البطلان ؛ لأن القرآن كُتِبَ في زمان النَّبِيِّ ﷺ، وبين يديه وحينئذ فلا يخلو ما اصطلم عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة التي كُتِبَتْ بين يدي النَّبِيِّ ﷺ أو غيرها فإن كانت عينها بطل الاصطلاح ؛ لأن أسبقية النَّبِيِّ ﷺ تنافي ذلك ، وتوجب الاتباع ، وإن كان غير ذلك ، فكيف يكون النَّبِيُّ ﷺ كتب على هيئة ، كهئية الرسم القياسي مثلاً والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصحُّ ذلك لوجهين :

أولهما : نسبة الصحابة إلى المخالفة ، وذلك مُحالٌ .

ثانيهما: أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن، ولا نقصان حرفٍ منه ، وما بين الدفتين كلام الله ﷻ، فإذا كان النَّبِيُّ ﷺ أثبت ألف في **مِائَة** دون **فِئَة** مثلاً ، ولم يزد الألف في **وَلَا وَضَعُوا** في سورة التوبة ٣٧:

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِئَكُم سَمْعُونَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ٤٧

وزاد الياء في الذاريات ٤٧ ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ٤٧ ونحو ذلك والصحابة عاكسوه في ذلك وخالفوه ، لزم أنهم — وحاشاهم من ذلك — تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على ما لا يحلُّ لأحد فعله ، ولزم تطرُّق الشكِّ إلى جميع ما بين الدفتين ؛ لأننا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النَّبِيِّ ﷺ ، وعلى ما عنده وأنها ليست بوحى ، ولا من عند الله ولا نعلمها بعينها شككنا في الجميع ، ولئن جوزنا لصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحى ، لزمنا أن نجوز لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي ؛ إذ لا فرق بينهما وحينئذٍ تتحل عروة الإسلام بالكلية (١) ، وأما دعوى ابن خلدون — رحمه الله — أن الصحابة ﷺ لم يكونوا يحكمون الخط ، فمبنيٌّ على آثار غير ثابتة أن أهل مكة إنما تعلموا الخط من أهل الحيرة ، وأن ذلك كان قبيل بعثة النَّبِيِّ ﷺ، ولا يثبت ذلك من حيث السند (٢) وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الخط توقيفيٌّ ، وعليه فلم يكن العرب حديثي عهدٍ بالخط زمن بعثة النَّبِيِّ ﷺ وبهذا يتبين عدم ثبوت ما ادعاه العلامة ابن خلدون .

(١) الإبريز لأحمد بن المبارك السلجماسي ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) انظر الآثار الواردة في ذلك في كتاب المصاحف لابن أبي داود باب خطوط المصاحف ص ٩ - ١٠ .

قال ابن فارس: الذي نقوله فيه: إن الخطَّ توقيفٌ، وذلك لظاهر قوله **وَعَلَّ**:

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

وعليه فإن دعوى أبْنِ خلدون — رحمه الله — أن السلف من التابعين ومن بعدهم إنما اقتفوا أثر الصحابة في كتابة المصاحف لمجرد التبرك اتّهامٌ للأمة جميعها بالنقلد الأعمى ، وعدم النظر لما يصلح دينها ، ومن الواضح البين عدم إصابته — رحمه الله — في ادعاء أن عدم إجادة الخط ليس نقصاً، كيف ذلك ، والعقلاء متفقون على أن الأمية نقصٌ يتنزّه عنه عوام الناس ، فضلاً عن علمائهم ، وإنما لم تكن الأمية نقصاً في حق نبيينا ﷺ لما أنّها كانت آية صدقه، إذ مع كونه أمياً ، كان قد حاز من العلوم ما لم يصل إليه غيره من البشر، فكان النقص في حق غيره علامة كمال في حقه ﷺ وتبقى الأمية في حق بقية البشر نقصاً يتنزّه عنه عقلاؤهم .

قال الزركشي: ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم ذلك - كتابتهم المصحف على الذي يعمله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز والمد والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً ، نحو: الْخَبَاءَ وَدِفْءٌ فصار ذلك كله حجة (١)

وفي ختام هذه المسألة أنوّه على أنه ليس هناك صعوبة تذكر على قارئ القرآن الكريم بعد ما أضيف إلى صورة الرسم من رموز النقط والشكل، التي أوضحت مشكله، وأعانت على سلامة النطق به.

وقد مرت القرون على المسلمين، وهم يكتبون المصاحف على ما رسم الصحابة ﷺ ولم يؤدّ ذلك إلى خطأ في تلاوة القرآن أو وقوع تحريف وأكبر دليل على ذلك تلاوتهم لإبراهيم البقرة وهي على امتداد السورة كلها مكتوبة بدون ألف الوسط والياء بخلاف باقي السور الكريمة ، وإذا علمنا أن سورة البقرة نزلت منجمة على مدى تسع سنين أدركنّا أن الكتابة بهذه الصورة وفي تلك السورة مقصودة لذاتها ولقد أفردنا فصلاً كاملاً في نهاية هذه الدراسة تناولنا فيه علة الكتابة على هذه الصورة مما يدل على الإعجاز الرباني في الرسم العثماني فله الحمد والمنّة .

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/١٣٨).

المبحث الثاني

دراسة في المتن الشريف

مقدمة

منذ فترة من الزمن، ظهر على (الإنترنت) كلام مسجوع من تأليف عربي لا يدين بالإسلام، يعيش في أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآني، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهي بحرف الميم أو النون مسبوقة بمد يائي أو واوي • وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، كما قال الشاعر:

وإني وإن كنت الأخيرة زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل^١

كما ظن أنه بعمله هذا قد أبطل التحدي الذي تحدى الله به الإنس والجن حين قال سبحانه:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

بِمِثْلِهِ • وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^٢

وكانه يقول: هاأنذا قد أتيت يمثله! وإذا فقد أبطلت التحدي، وأبطلت دعوى الإعجاز القرآني الذي قامت عليه رسالة محمد ﷺ • وإذا فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمد ﷺ ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن • ومر الزمن وبطلت سجعات مسيلمة، وبقي القرآن يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها • ولكن هذه الأضحوة الساذجة التي قام بها مسيلمة المتأمرك - وإن لم يدع بها النبوة كسلفه الجاهلي - حفزتنى إلى أن أكتب في موضوع الإعجاز الشامل للقرآن الذي لا ينحصر في الإعجاز البياني، الذي توجه إليه الاهتمام الأكبر في كتابات الأقدمين، لأسباب لا يصعب إدراكها • لقد كان العرب في جاهليتهم قوماً أولى فصاحة نادرة، وكانوا يعتزون بفصاحتهم إلى الحد الذي أطلقوا على غير الناطقين بلغتهم لفظة (العجم) ووصفوه بـ (العجمة)، وفيها إشارة واضحة إلى أنهم يعدونهم دونهم لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون الكلام باللغة الفصيحة - لغتهم هم - التي

(١) البيت لأبي العلاء المعري •

(٢) سورة الإسراء: ٨٨

يتميزون بها! وإذ كان ديدن الرسالات السماوية أنها تتحدى المنكرين بمعجزة تفوق قدراتهم البشرية، ليستيقنوا أنها من عند الله، ولو جحدوها ظاهراً، إمعاناً في الكفر والعناد كما قال سبحانه وتعالى عن موقف آل فرعون من معجزات موسى عليه السلام:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ﴾ ١

إذ كان هذا ديدن الرسالات، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل قوم فيما برعوا فيه وعدوه موضع فخرهم . فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذي كانوا بارعين فيه، وكانوا يستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم، وتأليه الفرعون بدلاً من الله وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعتهم في الطب الذي كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة في الطين، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، ليستيقنوا أنه من عند الله ﷻ.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ

مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ

وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٢ . فلما بعث الله الرسول ﷺ الخاتم

في العرب، كان من المناسب أن تكون الآية التي يتحدى بها المنكرين فصاحة من نوع ودرجة لا يقدر على الإتيان بمثلاً، لتستيقنوا أنفسهم ولو جحدوا بها ظاهراً كقوم فرعون، فكانت معجزته الكبرى ﷺ هي هذا القرآن، الذي تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فلم يستطيعوا، بصرف النظر عن المحاولة العابثة التي قام بها مسيلمة الكذاب، والمحاولة الأخرى التي قامت بها المتنبئة سجاح، فلم تستطع هذه ولا تلك أن تقنع العرب بأن القرآن يمكن أن يأتي أحد بمثله. هذا بالإضافة إلى أن الله قد أراد أن تكون معجزة الرسول ﷺ باقية على الزمن، لا تذهب بذهاب القوم الذين شاهدوها، لأن الله أراد أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين، وأن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، الباقية إلى آخر الزمان .

(١) سورة النمل: (١٤) .. (٢) سورة آل عمران: ٤٩

إذا أدركنا ذلك، أدركنا سر اهتمام القدامى من الكتاب العرب بالإعجاز البياني في القرآن، حيث كان هو موضع التحدي، وحيث كان عجز العرب- المعتزّين بفصاحتهم- عن الإتيان بمثله، دليلاً يقينياً على أن هذا القرآن هو كلام الله، وليس من كلام البشر، وأنه- بهذه الصفة- هو دليل صدق الرسول ﷺ في رسالته.

نعم... ولكن القرآن لم يكن معجزاً في بنائه اللفظي وحده وإن كان إعجازه اللفظي كافياً- وحده- للدلالة على أنه من عند الله، وكافياً- وحده- لإقامة التحدي أمام الإنس والجن إلى قيام الساعة! .

القرآن معجز في جميع مجالاته، وعلى جميع أصعدته...

وإذا كان القدامى- لأسباب مفهومة- قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البياني، الذي تحدى القرآن به الجاهلية العربية وآلهتها المزيفة، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى في هذا الكتاب المعجز، التي لا تقل إعجازاً عن الإعجاز البياني، والتي نحن في حاجة إلى تدبرها، وبيانها، وإبرازها، لتحدي الجاهلية المعاصرة، التي تتخذ صورة (العلمانية)، وترفع شعارات (العلم) و (العقلانية) و (التنوير)؛ لتفتن الناس عن ربهم ودينهم، وتؤله (الإنسان) بدلاً من الله، وتسعى- بحماقة- إلى تدمير الإنسان، بإبعاده عن مصدر النور الحقيقي:

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ هُوَ

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ ﴿٨٦﴾

شهادة عبد الله بن المقفع :

عبد الله بن المقفع - أحد أدباء العصر العباسي، ومن أهل البلاغة والفصاحة، كان مجوسياً فأسلم ثم قتل على الزندقة - . ولقد حاول أن يؤلف كتاباً يضاهي فيه القرآن وينافسه في أسلوبه ونظمه. وقبل أن ينفذ محاولته وهي محاولة تدل على قلة عقله وحماقته وغروره بما

(١) سورة النور: ٣٥...

(٢) سورة الصف (٨، ٩).

أوتي من أدب وبلاغة قبل أن يفعل ذلك مر بصبي من صبيان الكتاب وهو يقرأ آية من سورة هود تتحدث الآية عن نهاية الطوفان الذي غشي أهل الأرض وأهلك أهل قوم نوح وهي قوله **عَلَيْكَ: وَقِيلَ يَتَارِضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَلْعَلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ**

وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ **١١** . فاندھش ذلك الأديب البليغ من بلاغة هذه الآية وقوة سبكها وغازاة معانيها وصورها البيانية مع قلة ألفاظها ووجازة أسلوبها فحينئذ أقنع عن محاولته وكف عن سفاوته وعلم أنه لا قبل لبشر بمثل هذا هذه المعجزة الكبرى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي أعجزت الفصحاء والبلاء.

شهادة جبير بن مطعم :

جبير بن مطعم القرشي العربي الفصيح سمع القرآن وهو مشرك قبل أن يسلم فأخذ بمجامع قلبه وذلك حينما وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشرك وفد إليه يفاوضه في أسرى بدر فانتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي المغرب يؤم الناس في مسجده ويقرأ بسورة الطور حتى إذا بلغ قول الله **عَلَيْكَ: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**

٢٥ **أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ** **٢٦** **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ**

هُمُ الْمُصْطَرُونَ **٢٧** **أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ**

٢٨ **أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ** **٢٩** ^٢ قال جبير بن مطعم : كاد قلبي يطير وفي

رواية أنه قال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي .

ثم أسلم بعد ذلك رضي الله عنه وأرضاه .

العربي القرشي الفصيح لما سمع هذا القرآن وخاصة بتلاوة خير الورى صلى الله عليه وسلم فهم معانيه وأحسن بروعة مبانیه ومنتته وأسلوبه فكاد قلبه يطير شوقا إلى الإسلام.

ولن يفي كتاب واحد- مهما تضخمت صفحاته- بالحديث عن كل مجالات الإعجاز في القرآن، فهي في حاجة إلى أن يتفرغ لها كتاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة من إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البياني الذى لا تتفد عجائبه، أو الإعجاز الدعوى، بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب

(١) هود: ٤٤٠

(٢) الطور: ٣٥-٣٧

البشر من جميع منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذي تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوي الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمي الذي تتكشف آياته كلما زاد البشر علماً بما حولهم من الكون .. ولكن ضخامة الجهد المطلوب، وسعة الميادين المفتوحة للدراسة والبحث، لا تمنعني أن أدلى بجهدي المتواضع الذي لا أبغى به أكثر من أن يكون مجرد إرشادات، لعلها تحفز الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله ﷻ: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ

كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١﴾

قضية الإعجاز البياني

قضية الإعجاز البياني بدأت تفرض وجودها على العرب من أول المبعث ، فمنذ تلا المصطفى عليه الصلاة والسلام في قومه ما تلقى من كلمات ربه ، أدركت قريش ما لهذا البيان القرآني من إعجاز لا يملك أي عربي يجد حساً لغته و ذوقها الأصيل ، سليقة و طبعاً ، إلا أن يسلم بأنه ليس من قول البشر .

من هنا كان حرص طواغيت الوثنية من قريش، على أن يحولوا بين العرب و بين سماع هذا القرآن. فكان إذا أهل الموسم و آن وفود العرب للحج ، ترصدوا لها عند مداخل مكة ، و أخذوا بسبل الناس لا يمر بهم أحد حذروه من الإصغاء إلى ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من كلام قالوا إنه السحر يفرق بين المرء و أبيه و أخيه ، و بين المرء و زوجه و ولده و عشيرته .

و ربما وصلت آيات منه إلى سمع أشدهم عداوة للإسلام، فألقى سلاحه مصداً و مبايعاً، عن يقين بأن هذه الكلمات ليست من قول البشر .

حدثوا أن " عمر بن الخطاب " خرج ذات مساء متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم و رهطاً من أصحابه ، في بيت عند " الصفا " سمع أنهم مجتمعون فيه ، فلقبه في الطريق من سألته :

— أين تريد يا عمر ؟

أجاب: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش و سفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله .

قال له صاحبه :

— غرتك نفسك يا عمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض و قد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

سأله عمر ، وقد رابه ما سمع :

— أي أهل بيتي تعني؟

فأخبره أن صهره و ابن عمه " سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل " قد أسلم .

و كذلك أسلمت زوجته ، أخت عمر " فاطمة بنت الخطاب".

فأخذ " عمر " طريقه إلى بيت صهره مستثار الغضب، يريد أن يقتله و يقتل زوجته فاطمة. فما كاد يدنو من الباب حتى سمع تلاوة خافتة لآيات من سورة طه ، فدخل يلح طلب الصحيفة التي لمح أخته تخفيها عند دخوله

و انطلق من فوره إلى البيت الذي اجتمع فيه المصطفى بأصحابه، فبايعه، وأعز الله الإسلام بعمر، وقد كان من أشد قريش عداوة للإسلام و حرباً للرسول. [سيرة بن هشام] .
و في حديث بيعة العقبة ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم نذب صاحبه " مصعب بن عمير " ليذهب مع أصحاب العقبة إلى يثرب ، ليقرئهم القرآن و يعلمهم الإسلام . فنزل هناك على أسعد بن زرة " الأنصاري الخزرجي .

فحدث أن خرج يوماً إلى حي بني عبد الأشهل رجاء في أن يسلم بعض القوم . فما سمع كبير الحي " سعد بن معاذ ، و أسيد بن حضير " بقدوم مصعب و أسعد ، ضاقا بهما و أنكرا موضعهما من الحي ، قال سعد بن معاذ لصاحبه أسيد بن حضير : " لا أبا لك ! انطلق على هذين الرجلين فأزجرهما و انهما عن أن يأتيا دارينا . فإنه لولا أن أسعد بن زرة منى حيث علمت ، كفيتك ذلك : هو ابن خالتي و لا أجد عليه مقدماً" .

و التقط أسيد بن حضير حربته و مضى إلى صاحبي رسول الله فزجرهما متواعداً :
— ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعترلانا إن كانت لكما بنفسيكما حاجة .
قال له مصعب بن عمير :

— أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، و إن كرهته كفَّ عنك ما تكره ؟
فركز أسيد حربته و اتكأ عليها يصغي إلى ما يتلو مصعب من القرآن . ثم أعلن إسلامه من فوره ، وعاد إلى قومه فعرفوا أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به . و ما زال أسيد بسعد بن معاذ حتى صاحبه إلى ابن خالته أسعد بن زرة ، فبادره سعد سائلاً في غضب و إنكار :
" يا أبا أمامه، لولا ما بيني و بينك من القرابة ما رمت هذا مني .
أتغشانا في دارنا بما نكره؟ " . .

ولم يجب أبو أمامه ، بل أشار على صاحبه " مصعب " الذي استهل سعد بن معاذ حتى يسمع منه ، ثم تلا آيات من معجزة المصطفى ، نفذت إلى قلب ابن معاذ فمزقت عنه حجب الغفلة و غشاوة الضلال . و أعلن إسلامه و عاد إلى قومه فسألهم : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ .

أجابوا جميعاً : سيدنا ، و أفضلنا رأياً ، و أيمننا فيكم ؟

فأجابوا جميعاً : سيدنا ، و أفضلنا رأياً ، و أيمننا نقيبة .

فعرض عليهم الإسلام " فو الله ما أمسى في حي بني عبد الأشهل رجل أو امرأة إلا مسلماً و مسلمة " [سيرة بن هشام] .

هل فرض القرآن إعجازه على هؤلاء الذين استتارت بصائرهم فآمنوا بمعجزة المصطفى بمجرد سماعهم آيات منها ، دون غيرهم ممن لجوا في العناد و التكذيب ؟

إن القرآن لم يفرض إعجازه البياني من أول المبعث ، على هؤلاء الذين سبقوا إلى الإيمان به فحسب ، بل فرضه كذلك على من ظلوا على سفهمهم و شركهم ، عناداً و تمسكاً بدين الآباء و نضالاً عن أوضاع دينية و اقتصادية و اجتماعية لم يكونوا يريدون لها أن تتغير . و في الخبر أن من طواغيت قريش و صناديد الوثنية العتاة من كانوا يتسللون في أوائل عصر المبعث خفية عن قومهم، ليسعوا آيات هذا القرآن دون أن يملكوا إرادتهم. روى " ابن إسحاق " في السيرة أن أبا سفيان بن حرب ، و أبا جهل ابن هشام المخزومي ، والأخنس بن شريق الزهري ، خرجوا ذات ليلة متفرقين على غير موعد ، إلى حيث يستمعون من رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يصلى و يتلو القرآن في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، و لا أحد منهم يعلم بمكان صاحبيه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا و قال بعضهم لبعض: " لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً " ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة التالية، عاد كل منهم إلى مجلسه لا يدري بمكان صاحبيه. فباتوا يستمعون للمصطفى حتى طلع الفجر فتفرقوا و جمعهم الطريق فتلاوموا، وانصرفوا على ألا يعودوا. لكنهم عادوا فتسللوا في الليلة الثالثة و باتوا يستمعون إلى القرآن [سيرة بن هشام].

إعجاز النظم في القرآن الكريم

لإعجاز النظم عدة مظاهر تتجلى فيها :

المظهر الأول: الخصائص المتعلقة بالأسلوب

و إليك هذه الخصائص :

الخاصة الأولى : إن هذا الأسلوب يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، و يقوم في طرقاته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم . بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظاماً أو نثراً ، وللنظم أعاريض ، وأوزان محددة معروفة ، و للنثر طرائق من السجع ، و الإرسال و غيريهما مبينة و معروفة . و القرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه و لا في قصيده ، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله و لا في تسجيعة ، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا و لا ذاك ،

و لكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته ، بل يسري في صياغته ، و تألف كلماته ، و تجد في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارئ العربي كيفما قرأ ، طالما كانت قراءته صحيحة . و مهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى و مختلف سوره وجدته مطبوعاً على هذا النسق العجيب فمن أجل ذلك تحير العرب في أمره ، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه ، و قارنوه بفنون النثر فوجدوا غير لاحق بالمعهود من طرائفه فكان أن انتهى الكافرون منهم إلى أنه السحر ، واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين . و إليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة التي توضح هذه الحقيقة ، و تجلبها ، قال تعالى في سورة فصلت : ١ — ٦:

﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿ ٥ ﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿ ٦ ﴾

و هذه الآيات بتأليفها العجيب ، و نظمها البديع حينما سمعها عتبة بن أبي ربيعة و كان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه ، و مشاعره ، و طارت بلبه ، و وقف في ذهول ، و حيرة ، ثم عبر عن حيرته و ذهوله بقوله : " و الله لقد سمعت من محمد قولاً ما سمعت مثله قط ، و الله ما هو بالشعر و لا بالسحر و لا بالكهانة ... و الله ليكونن لقوله الذي سمعته نبأ عظيم " .

و إليك سورة من سوره القصار تتجلى فيها هذه الحقيقة أمام العيان من ينكرها فكأنما ينكر الشمس في وضوح النهار يقول سبحانه وتعالى في سورة الشمس ..

﴿ ١ ﴾ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿ ٢ ﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿ ٣ ﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿ ٤ ﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿ ٥ ﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿ ٦ ﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ﴿ ٧ ﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿ ١٠ ﴾ فَالْهُمْهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ١١ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿ ١٢ ﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿ ١٣ ﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿ ١٤ ﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ

وَسُقِّيَهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا تَخَافُ

عُقْبَهَا ﴿١٥﴾ .

تأمل هذه الآيات ، و كلماتها ، و كيف صيغت هذه الصياغة العجيبة ؟ و كيف تألفت كلماتها و تعانقت جملها ؟ و تأمل هذا النغم الموسيقي العذب الذي ينبع من هذا التالف البديع ، إنه إذا لامس أوتاد القلوب : اهتزت له العواطف و تحركت له المشاعر ، و أسال الدموع من العيون و خرت لعظمته جباه أساطين البيان ، أشهد أنه النظم الإلهي الذي لا يقدر على مثله مخلوق . و هذه الحقيقة توجد في سائر كتاب الله لا تتخلف في سورة من سوره و لا في آياته، و من أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الإتيان بأقصر من مثله.

و في هذا يقول الرافعي رحمه الله : " و ذلك أمر متحقق بعد في القرآن الكريم : يقرأ الإنسان طائفة من آياته ، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس ترافد ما بعدها و تمده ، و فلا تزال هذه الصفة في لسانه ، و لو استوعب القرآن كله ،حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هي فيه ، أو دفعنها عن ماء هي إليه : و لا يرى ذلك إلا سواء و غاية في الروح و النظم و الصفة الحسية ، و لا يغتمض في هذا إلا كاذب على دخله و نية ، و لا يهجن منه إلا أحقق على جهل و غرارة ، و لا يمتري فيه إلا عامي أو أعجمي و كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون " (١) .

الخاصة الثانية : هي أن التعبير القرآني يظل جارياً على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ ، و عمق المعنى و دقة الصياغة و روعة التعبير ، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع و القصص و المواعظ و الحجاج و الوعود و الوعيد و تلك حقيقة شاقة ، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى فحول علماء العربية و البيان .

و بيان ذلك أن المعنى الذي يراد عرضه، كلما أكثر عموماً و أغنى أمثلة و خصائص كان التعبير عنه أيسر ، و كانت الألفاظ إليه أسرع، وكلما ضاق المعنى و تحدد، و دق و تعمق كان التعبير عنه أشق، و كانت الألفاظ من حوله أقل.

و لذا كان أكثر الميادين الفكرية التي يتسابق فيها أرباب الفصاحة و البيان هي ميادين الفخر و الحماسة و الموعظة و المدح و الهجاء ، و كانت أقل هذه الميادين اهتماماً منهم ، و حركة بهم ميادين الفلسفة و التشريع و مختلف العلوم ، وذلك هو السر في أنه قلما تجد الشعر يقتحم شيئاً من هذه الميادين الخالية الأخرى .

(١) إعجاز القرآن للرافعي : ص ٢٧٥

و مهما رأيت بليغاً كامل البلاغة و البيان ، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات و المعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه ، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها ، وربما جاء بالغاية ووقف دونها ، غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى ، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف ، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة ، و تقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع و أحكام الحلال و الحرام ، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الإشراق و البيان . و تنتظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها . و دونك فأقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف معانيه ، و موضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول ، ولتلمس برهانه عن تجربة و نظر(١).

و يقول في معرض حديثه عن " روح التركيب " في أسلوب القرآن : لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، و إن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب و موضع التأليف و ألوان التصوير و أغراض الكلام " (٢).

و يقول في معرض حديثه عن " **روح التركيب** " في أسلوب القرآن : " و هذه الروح لم تعرف قط في كلا عربي غير القرآن ، و بها انفرد نظمه ، و خرج مما يطيقه الناس ، و لولاها لم يكن بحيث هو ، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة ، و تأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، و خرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب ، و أن العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب : كالقصص و المواعظ و الحكم و التعليم ، ضرب الأمثال إلى نحوها مما يقدر عليه .

و لولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني ، و موقعها في النفوس ، و على مقدار ما بين الألفاظ و الأساليب التي تؤديها حقيقة و مجازاً ، كما تعرف من كلام البلغاء ، عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها ، على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم و كفوها أكبر المؤنة فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم إلى أغراض و معان يعذب فيها الكلام و يتسق القول و تحسن الصنعة مما يكون أكبر حسنة في مادته اللغوية ، و ذلك شائع مستفيض في مآثور الكلام إلي غيره ، و أفضوا بالكلام إلى المعنى ما يشبه في اثنين متقابلين من الناس .

(١) عن من كتاب روائع القرآن : للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٧٤ و كتاب تاريخ الأدب العربي للرافعي [٢٤١] .

و على أننا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطى الكلام في باب الشرع و تقرير النظر ، و تبين الأحكام و نصب الأدلة و أقام الأصول و الاحتجاج لها و الرد على خلافها إلا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب ، و أنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر و الأسلوب الرائع و الصنعة المحكمة و البيان العجيب ، والمعرض الحسن فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعاني ، وقعت ثمة على شيء كثير من اللفظ المستكره ، والمعنى المستغلق ، و السياق المضطرب و الأسلوب المتهافت و العبارة المبتذلة ، و على النشاط متخاذلاً ، و العرى محلولة ، و الوثيقة واهنة " (١).

الخاصة الثالثة: أن معانيه مصاغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف

مداركهم و ثقافتهم و على تباعد أزممنتهم و بلدانهم ، و مع تطور علومهم و اكتشافاتهم .
خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول ، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك ، والثقافة ، فستجد أن الآية تعطي كلا منهم معناها بقدر ما يفهم ، و أن كلا منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه .
و في القرآن الكثير من هذا و ذاك فلنعرض أمثلة منه :

من القليل الأول قوله تعالى : " تبارك الذي جعل في السماء بروجاً و جعل فيها سراجاً و قمراً منيراً " فهذه تصف كلا من الشمس و القمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، و لها عمق يصل إليه المتأملون و العلماء ، و لها جذور بعيدة يفهمها الباحثون و المتخصصون ، و الآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاثة للمعنى ، فتعطي طاقته و فهمه .
فالعامي من العرب يفهم منها أن كلا من الشمس و القمر يبعثان بالضياء إلى الأرض ، وإنما غير في التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ ، و هو معنى صحيح تدل عليه الآية ، و المتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً ، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه .

الخاصة الرابعة: و هي ظاهرة التكرار.

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان :

أحدهم: تكرر بعض الألفاظ أو الجمل.

و ثانيهما: تكرر بعض المعاني كالأقاصيص، والأخبار.

فالنوع الأول: يأتي على وجه التوكيد، ثم ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية، كالتهويل، والإنذار، التجسيم و التصوير و للتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الأغراض البلاغية في الكلام

(١) كتاب إعجاز القرآن للرافعي.

، و من أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة القارعة ﴿١﴾ **الْقَارِعَةُ** ﴿٢﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٤﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٥﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى في الحاقة ﴿١﴾ **الْحَاقَّةُ** ﴿٢﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٦﴾ .

و قوله تعالى في المدثر [سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٦﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ﴿٧﴾ لَا تُتَّقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٨﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٩﴾] .

و النوع الثاني: و هو تكرار بعض القصص و الأخبار يأتي لتحقيق غرضين هامين:

الأول: إنهاء حقائق و معاني الوعد و الوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها ، و هي تكرار هذه الحقائق في صور و أشكال مختلفة من التعبير و الأسلوب ، ولقد أشار القرآن إلى هذا الغرض بقوله تعالى في سورة طه ١١٣ :

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ .

الثاني: إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ و العبارة ، و بأساليب مختلفة تفصيلاً و إجمالاً ، الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه ، و يستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه ، إذ من المعلوم أن هذا الكتاب إنما تنزل للإقناع العقلاء ، من الناس بأنه ليس كلام بشر ، و لإلزامهم بالشرعية التي فيه ، فلا بد فيه من الوسائل التي تفى بتحقيق الوسيلة إلى كلا الأمرين .

و من هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ ، و يدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب ، و طريقة التصوير و العرض ، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة و لنضرب لك مثلاً على هذا الذي نقول : بقصة موسى عليه السلام إذ أنها أشد القصص في القرآن تكراراً ، فهي من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة على هذا التكرار .

وردت هذه القصة في حوالي ثلاثين موضعاً ، ولكنها في كل موضع تلبس أسلوباً جديداً و تخرج أخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه ، و تهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل .

الخاصة الخامسة:

و هي تداخل أبحاثه ، و مواضيعه في معظم الأحيان فإن من يقرأ هذا الكتاب المبين لا يجد فيه ما يجده في عامة المؤلفات و الكتب الأخرى من التنسيق و التبويب حسب المواضيع ، و تصنيف البحوث مستقلة عن بعضها ، و إنما يجد عامة مواضيعه و أبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينهما ، وقد يجدها متداخل في بعضها في كثير من السور و الآيات . و الحقيقة أن هذه الخاصة في القرآن الكريم، إنما هي مظهر من مظاهر تفرد، و استقلاله عن كل ما هو مألوف و معروف من طرائق البحث و التأليف.

المظهر الثاني: المفردة القرآنية

إذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بميزات ثلاثة رئيسية هي:

- ١ — جمل وقعها في السمع.
 - ٢ — اتساقها الكامل مع المعنى .
 - ٣ — اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني و المدلولات.
- و قد نجد في تعابير بعض الأدباء و البلغاء كالجاحظ و المتنبي كلمات تتصف ببعض هذه الميزات الثلاثة أما أن تجتمع كلها معا ، و بصورة مطردة لا تتخلف أو تشذ فذلك مما لم يتوافر إلا في القرآن الكريم .

و إليك بعض الأمثلة القرآنية التي توضح هذه الظاهرة و تجليها :

أنظر إلى قوله تعالى في وصف كل من الليل و الصبح في سورة التكويد:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾

ألا تشم راحة المعنى واضحاً من كل هاتين الكلمتين: عسعس، و تنفس؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة ؟

و هل في مقدورك أن تصور إقبال الليل، وتمدده في الآفاق المترامية بكلمة أدق و أدل من " عسعس " .

و هل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل و سجنه بكلمة أروع من " تنفس " ؟

أقرأ قوله تعالى في سورة التوبة ٣٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَلُثُمُ إِلَى
الْأَرْضِ ءَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ .

و ادرس الأداء الفني الذي قامت به لفظة " أثاثلتم " بكل ما تكونت به من حروف ، و من صورة ترتيب هذه الحروف ، و من حركة التشديد على الحرف اللثوية " الثاء " و المد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التي تنطبق عليها الشقتان ، ويخرج صوتهما من الأنف ، ألا تجد نظام الحروف ، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحى إليك بالمعنى ، قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟. ألا تلاحظ في خيالك ذلك الجسم المثقل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط في أيديهم في ثقل ؟ ألا تحس أن البطء في تلفظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثاقل ؟

جرب أن تبدل المفردة القرآنية، و تحل محلها لفظة " تثاقلتم " ألا تحس أن شيئاً من الخفة و السرعة، بل و النشاط أوحى به " تثاقلتم " بسبب رصف حروفها، و زوال الشدة، وسبق التاء قبل الثاء ؟ إذن فالبلاغة تتم في استعمال " أثاقلتم " للمعنى المراد ، ولا تكون في " تثاقلتم " .

المظهر الثالث: الجملة القرآنية و صياغتها

إن دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة القرآنية لأن هذه أساس الجملة ، و منها تركيبها ، و إذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات ، فإنهم مقرون دون جدل أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته . و للإعجاز فيها وجوه كثيرة .

فمنها : ما تجده من التلاؤم و الاتساق الكاملين بين كلماتها ، و بين ملاحق حركاتها ، و سكناتها ، فالجملة في القرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات و حروف ، و أصوات يستريح لتألفها السمع و الصوت و المنطق ، و يتكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال .

أقرأ قوله تعالى : " ففتحن أبواب السماء بماء منهمر ، و فجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر " و تأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ، ثم دقق نظرك ، و تأمل تألف الحروف الرخوة مع الشديدة و المهموسة و المجهورة و غيرها ، ثم حاول التمعن في تأليف و تعاطف الحركات و السكنات و المدود اللاحقة ببعضها ، فإنك إذا تأملت في ذلك ، علمت أن

هذا الجملة القرآنية . إنما صبت من الكلمات و الحروف و الحركات في مقدار ، و أن ذلك إنما قدر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير و هيات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة .

و منها : إنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر و جمل كثيرة ن دون أن تجد فيه اختصاراً مخلاً ، أو ضعفاً في الأدلة . أقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف ١٩٩ :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين و الصفح عن الظالمين .

و اقرأ قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام في سورة طه ١١٨ :

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معاش الإنسان كلها من طعام و شراب و ملابس ، و ماوى .

و أقرأ قوله تعالى في القصص ٧٧ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ

الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ و تأمل كيف جمعت هذه الآية الكريمة بين أمرين و نهيين و خبرين و بشارتين أما الأمرين فهما : " أرضعيه ، و ألقيه في اليم ، و أما النهيان فهما " لا تخافي " ، و " لا تحزني " .

و أما الخبران فهما " أوحينا " و " خفت " و أما البشارتان فهما " أنا رادوه إليك " و " جاعلوه من المرسلين " .

و تأمل سورة " الكوثر " وهي أقصر سورة في القرآن إذ هي ثلاثة آيات قصار كيف تضمنت ، على قلة آياتها الأخبار عن مغيبين : أحدهما : الأخبار عن الكوثر " نهر في الجنة " و عظمتة و سعته و كثرة أوانيه ، الثاني : الإخبار و عن " الوليد بن المغيرة " و كان عند نزولها ذا مال و ولد ، ثم أهلك الله سبحانه ماله و ولده ، وانقطع نسله ومنها : أخرج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس ، ثم بث الروح و الحركة في هذا المظهر نفسه .

و مكن الإعجاز في ذلك ، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنيط بها من المعاني ، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصب المعاني الفكرية المجردة في قوالب من الشخوص و الأجرام و المحسوسات ، تتحرك في داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة و الحركة المشاهدة الملموسة . أستمع إلى القرآن الكريم و هو يصور لك قيام الكون على أساس من النظام الرتيب و التنسيق البديع الذي لا يتخلف، و لا يلحقه الفساد ، فيقول في " الأعراف ٥٤ :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

إنه يصور لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك، و كأنها أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها و تصورها الشعور و الخيال.

الباحثون في القرآن يجمعون على إعجازه

الجاحظ و رأيه في بلاغة القرآن :

الجاحظ هو مؤسس البيان العربي بلا منازع، هو أبو عثمان بن بحر بن محبوب الكتاني، المعروف بالجاحظ البصري ولد سنة ١٥٠ هـ و توفي سنة ٢٥٥ هـ. ففي رسالة له بعنوان حجج نبوية يقول: " إن محمد صلى الله عليه و سلم مخصوص بعلامة، لها في العقل موقع كموقع فلق البحر في العين.. ذلك قوله لقريش خاصة و للعرب عامة مع من فيها من الشعراء و الخطباء و البلغاء ، والحكماء و أصحاب الرأي و المكيدة ، والتجارب و النظر في العامة " إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، و صدقتكم في تكذبي " ثم يقول " و لا يجوز أن يكون مثل العرب في كثير عددهم و اختلاف عللهم و كلامهم ، وهو سيد علمهم ، وقد فاض ببيانهم ، و جاشت به صدورهم ، و غلثهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا في الحيات ، والعقارب و الذئاب و الكلاب ، والخنافس ، والحمير و الحمام و كل ما دب على الأرض و لاح لعين ، وخطر على قلب و لهم أصناف النظم ، و ضروب التأليف .. كالقصيد، والرجز ، و المزدوج و المتجانس و الاستماع و المنثور و بعد فقد هاجوه من كل جانب ، و هاجا أصحابه شعرائهم ، و نازعوه خطباءهم و حاجوه في الموقف و خاصموه في الموسم ، و باروه العداوة ، و ناصبوه الحرب ، فقتل منهم و قتلوا منه

.. و هم أثبت الناس حقاً، و أبعدهم مطلباً، و أذكرهم لخبر أو الشر، و أبقاهم له، و أهجاهم ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب و شاعر.

ثم يقول : و محال في التعارف و مستكر في التصادف أن يكون الكلام أقصر عندهم ، و أيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبه ، و أنقض لقله ، أجدد أن يعرف ذلك أصحابه ، فيجتمعوا على ترك استعماله و الاستغناء عنه ، وهم يبذلون مهجهم و أموالهم و يخرجون من ديارهم في إطفاء أمرهم و توهين و لا يقولون ، بل و لا يقول واحد من جماعتهم ، لم تقتلوا أنفسكم وتستهلكوا أموالكم ، تخرجون من دياركم و الحيلة في أمره ميسرة و المأخذ في أمره قريب ؟

ليؤلف واحد من شعرائكم و خطبائكم كلاماً في نظم كلامه ، كأصغر سورة يحتكم بها ، و كأصغر آية دعاكم إلى معارضتها ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، فدل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، و أن مثل ذلك لا يتهياً لهم ، فرأوا أن الإعراض عن ذكره ، و التغافل عنه في هذا الباب أمثل لهم في التدبير ، و أجدد ألا ينكشف أمرهم للجاهل و الضعيف ، و أجدد أن يجدوا إلى الدعوة سبيلاً ، وإلى اختراع الأنباء سبباً. و إلا أن يكون غير ذلك ، و لا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة و هم يقدرين عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء و الدهاة و الحكماء مع اختلاف علمهم ، و بعد همهم ، و شدة عداوتهم ، بذلك الكثير ، و صون اليسير فكيف على العقلاء لأن تحبير الكلام أهون من القتال و من إجراء المال أ. هـ .

مسيحوا العصر الحديث يعترفون بعظمة القرآن

أعترف الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي بعظمة القرآن الكريم و ذلك بعد أن كلفته وزارتا الخارجية و المعارف الفرنسية بترجمة (٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرر فيها ففعل و قال في مقدمة ترجمته الصادرة ١٩٢٦م أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جل و علا فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الخالق الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهاً ، و الحق الواقع أن أكثر الكتاب شكاً و ارتياباً قد خضعوا لسلطان تأثيره .

و يورد الأستاذ محمد صادق الرافعي بعض تصريحات لمسيحيين عن بلاغة القرآن من هؤلاء أديب الملة المسيحية هو الشيخ إبراهيم اليازجي وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية ، و ذلك في كتابه (نجعة الرائد) و كذلك أورد الدكتور حين حسن ضياء الدين تصريحاً لأحد المسيحيين يتضمن إعجابه بالإعجاز البياني بالقرآن الكريم و هذا الأديب الشاعر هو الشاعر

المعاصر (نقولا حنا) والذي أعلن إسلامه وألف فيه القصائد الشعرية والتي تميز بها وحده دون غيره من المسلمين قبله.

الإعجاز و البلاغة

إن الصورة و الألوان معجزة في القرآن ، وإعجازها راجع إلى نظمها ، فالقرآن الكريم كما سبق أن وضعنا معجز بنظمه ، و هذه الصور و الألوان قد اقتضاها هذا النظم المعجز فأصبحت جزءا منه فتكون معجزة و لقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني عندما تعرض لتوضيح الاستعارة في قوله تعالى في سورة مريم ٤: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ

الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

فقال: " إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم و الوقوف على حقيقته . و من دقيق ذلك و خفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى:

﴿ وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

لم يزيديا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، و ليس الأمر على ذلك ، و لا هذا الشرف العظيم ، و لا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة و لكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، و يؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده ، مبينا أن ذلك الإسناد، و تلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ، و لما بينه و بينه من هذا الاتصال و الملابس كقولهم : طاب زيد نفساً وقر عمرو عينا ، و تصيب عرقاً ، و كرم أصلاً ، و حسن وجهاً و أشباه ذلك مما تجد منقولا عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه ، و ذلك أنا نعلم أن " اشتعل " للشيب في المعنى ، و أن كان هو الرأس فقط ، كما أن ما أسند إليه ، يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك و توخى به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه ، و تأخذ اللفظ فتسند إلى الشيب صريحا فنقول : " اشتعل الرأس " أو " الشيب في الرأس " ، ثم تنتظر هل تجد ذلك الحس ، و تلك الفخامة ؟ و هل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان " اشتعل " إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بأن بالمزية من الوجه الآخر هذه البيونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، و عم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به .

وهذا ما لا يكون إذا قيل : " أشتعل شيب الرأس " أو " الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول : اشتعل البيت عليه ، و أخذت في طرفيه ووسطه ، و تقول : " اشتعلت النار في البيت " فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه ، و أصابتها جانباً منه ، فأما الشمول ، وأن تكون قد استولت على البيت ، و ابتزته فلا يعقل من اللفظ التفجير للعيون في المعنى ، ووقع على الأرض في اللفظ ألبته . و نظير هذا في التنزيل قوله تعالى في سورة القمر ١٢ :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى

أَمْرٍ قَدٍ قُدِرَ ۚ ﴾ التفجير للعيون في المعنى وواقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس . وقد حصل بذلك من معنى الشمول ها هنا مثل الذي حصل هناك . و ذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها ، و أن الماء كان يفور من كل مكان فيها و لو أجرى اللفظ على ظاهره فقليل : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ۖ ﴾ " أو العيون في الأرض " لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، و لكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض ، و تنبجس من أماكن فيها .

من هذا النص يتضح لنا أن عبد القاهر يرجع جمال الاستعارة و شرفها ور وعتها في القرآن الكريم إلى نظمها العجيب البديع ، و كم كنت أود أن يتناول هذا الأديب الذواقه الصور و الألوان البلاغية في القرآن بهذه العبارة الفياضة و بتك الطريقة البيانية الرائعة التي تشف عن الجمال الأخاذ و الإعجاب الرائع الذي يكمن في هذه الصور ، و ينبع من نظمها العجيب الذي لا يقدر على مثله بشر ، و لكنه وقف عند لمحة من لمحاته الجزئية شأنه في ذلك شأن غيره من بلغاء عصره [دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٧٩ - ٨٠ .

من روائع التشبيه في القرآن الكريم :

قال تعالى في سورة يونس ٢٤ :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أْتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

شبه القرآن حال الدنيا في سرعة تقضيها و انقراض نعيمها ، و اغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء و أنبت أنواع العشب ، وزين بزخارفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، و ظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكأنها لم تكن بالأمس .

تأمل بعقلك و خيالك و ذوقك نظم الآية الكريمة أنها مكونة من عشر جمل لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، وانظر إلى هذه الجمل تجد كل جملة تعبر عن مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، و قد رتبت ترتيباً عجباً كان كل جملة منها تلد التي تليها ، و قد تكونت كل جملة من طائفة من الكلمات تألفت بأصواتها و ظلالها و أجراسها فعبرت أصدق تعبير عن المشهد الذي استقلت به ، أن نظمها أو حرفاً بأخر اختل بمقدار ، بحيث إذا أخرجت أو قدمت أو غيرت كلمة بأخرى أو حرفاً بأخر اختل المعنى ، و تبعثرت مشاهد الصورة الدنيوية .

قال تعالى في سورة إبراهيم ١٨ :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

الذين كفروا في ضياعها، و ذهابها إلى غير عودة بهيئة رماد تذروه الرياح و تذهب به بدداً إلى حيث لا يتجمع أبداً.

تأمل نظم الآية تجد كل كلمة قارة في مكانها ، مطمئنة في موضعها لا تشكو قلقاً و لا اضطراب ، معبرة في دقة و صدق عن معناها ، و تأمل تناسق الكلمات و تألقها ، و ترتيب الجمل و تعانقها ، و مخارج الحروف و أصواتها ، و إحياءات الألفاظ و إشاراتنا تجد نظاماً عجباً لا يقدر عليه إلا خالق الأرض و السموات .

تأمل كلمة " رماد " إنها توحى بخفة الوزن، و تأمل، " اشتدت " فإنها توحى بسرعة الرياح و تأمل كلمة " عاصف " فإنها توحى بالعنف.

و تأمل كيف أبرز لك هذا التشبيه ببديع نظمته الصورة حية متحركة كأنك تراها و تلمسها.

قال تعالى في سورة البقرة ٢٦٥

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

شبه القرآن الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضات الله في كثرة ثوابها و مضاعفة أجرها بجنة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت تربتها ، و تضاعف أكلها .

تأمل نظم الآية العجيب كلمات إلهية لا يصلح في مكانها غيرها تعبر عن معانيها في دقة و إحكام ، وتتبعث منها لطائف و أنوار ، و ينطوي تحتها الكثير من العجائب و الأسرار ، و جمل ربانية متناسقة متلاحقة قد فصلت على معانيها بمقدار ، و حروف ذات أصوات و أنغام تبعث في الصورة الحركة و تثبت فيها الحياة .

تأمل نظم الآية العجيب كلمات إلهية لا يصلح في مكانها غيرها تعبر عن معانيها في دقة و إحكام ، و تتبعث منها لطائف و أنوار ، و ينطوي تحتها الكثير من العجائب و الأسرار ، و جمل ربانية متناسقة متلاحقة قد فصلت على معانيها بمقدار ، و حروف و أنغام تبعث في الصورة الحركة و تثبت فيها الحياة .

إن من يقرأ الآية الكريمة ، يتذوق حلاوتها و يخيل إليه أنه يرى هذه الصورة الغيبية الخفية أمام عينيه و أنه يلمسها و يتقراها بيديه .

أبعد هذا التصوير يأتي مكابر مجهول يصف التشبيه القرآني بأنه عن الإعجاز معزول ؟

قال تعالى في سورة العنكبوت ٤١: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

شبه القرآن الكريم حال هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا في لجوئهم و احتمائهم بهؤلاء الأنداد الضعفاء المتناهيين في الضعف بحال العنكبوت حينما تأوي إلى بيتها الضعيف الواهن و تحتمي به .

صورة عجيبة تلج على الحس و الوجدان ، و تجتذب إليها الالتفات ، وتسترعي الانتباه ، و تسترق الأسماع و تبهر الأبواب و تستولي على الأحاسيس و المشاعر ، و يقف أمامها دهاقين الكلام حيارى يتساءلون كيف نظمت هذه الصورة ؟ و كيف تكونت ؟ ثم لا يجدون من يجيبهم على تساؤلهم ، لأن البشر مهما أوتوا من البراعة و البيان لا يمكنهم الوصول إلى معرفة سر نظم القرآن .

إنها تصور لك هؤلاء العباد الغافلين بصورة العناكب الضئيلة الواهنة، و تصور لك هؤلاء الضعفاء العاجزين بصورة بيت العنكبوت الذي يضرب به المثل في الضعف و الوهن .

و أظنك أيها القارئ الكريم لست في حاجة إلى أن أحدثك عن نظم هذه الصورة البلاغية فذلك متروك لذوقك و إحساسك ، و لكنني أدعوك إلى النظر و التأمل في الكلمات التي اختيرت

للمشبه به و نظمت منها صورته **كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا** هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما كان حظه من الفصاحة البيانية ، و مهما كان يحفظ من مفردات اللغة العربية أن يأتي بألفاظ تسد مسد هذه الألفاظ التي نظمت منها صورة المشبه به ؟ إن أحداً من البشر لن يستطيع ، واللغة العربية على اتساع مفرداتها ليس فيها ما يسد مسد هذه الألفاظ . إنها الصياغة الإلهية يقف البشر أمامها عاجزين حيارى مذهولين .

قال تعالى في الأعراف ١٧٥: **وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ** **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** **سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ**

تأمل الصورة التشبيهية التي اشتملت عليها الآية الكريمة . لقد شبه القرآن الكريم في هذه الآية حال الكذب بآيات الله في إصرار على ضلاله في جميع أحواله كالكلب في إدامة اللهثان .

إنها صورة فنية رائعة أحكم القرآن الكريم صياغتها ، و أجادت الريشة الإلهية رسمها ، تكشف في جلاء ووضوح عن حقيقة هذا الكذب الضال ، إنه حقير قدر ، لا يؤثر فيه النصح والإرشاد و لا ينفع معه الوعظ و التذكير ، قد ركب رأسه ، ولج في ضلاله ، واتخذ الشيطان إلها من دون الله ثم تأمل الكلمات التي نظمت منها صورة المشبه به لا تجد في مفردات اللغة — على كثرتها ، من يقوم مقامها و يسد مسدها ، ثم تأمل كلمة " الكلب " وحدها لا تجد كلمة في اللغة تصور هذا المعنى و تبرزه في صورة حية متحركة سواها ، إذ كل مخلوق إنما يلهث من مرض أو عطش أو إعياء إلا الكلب فإنه يلهث في جميع أحواله في حال الدلال و في حالة الراحة ، و في حالة الصحة و المرض وفي حالة الري و العطش .

قال تعالى في الواقعة ٢٣: **وَحُورٌ عِينٌ** **كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ** شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون في الصفاء و النقاء و الهدوء و الصيانة .

تأمل نظم هذه الصورة التشبيهية الإلهية أنه فوق طاقة البشر . ثم تأمل هذه الكلمة العجيبة " اللؤلؤ " هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما أوتي من البراعة و البيان أن يأتي بكلمة أخرى تؤدي معناها ، و تصور ما صورته ؟ ثم تأمل الدقة في صفة هذا اللؤلؤ بكونه مكنونا . إن اللؤلؤ فيه الصفاء و الهدوء و النقاء ، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان و يحرص عليها .

تأمل الارتباط العجيب و الصلة الوثيقة بين الحور العين و اللؤلؤ المكنون، إنه الإعجاز يلبس ثوب التشبيه فيقف البلغاء أمامه ضعفاء قد استولت عليه الحيرة و سيطرت على عقولهم الدهشة و داعبت أنامل الإعجاب حبات قلوبهم. فخرروا ساجدين لعظمته، و شهدوا بأنه البيان الإلهي الذي لا يقدر عليه بشر.

قال تعالى في القارعة ٤ :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

شبه القرآن الكريم الناس يوم القيامة بالفراش المبعوث في ضعفهم و ضالتهم و تهافتهم.

و شبه الجبال بالعن " الصوف " المنفوش في هشاشتها و خفتها .

مشهدان رائعان رسمتهما الريشة الإلهية فأجادت و أعجزت، و سخرت و أدهشت.

تأمل هذه الكلمة " الفراش " إنها تصور لك بظلمها و جرسها ، و إحائها الناس في هذا اليوم في منتهى الضعف و الضالة ، وهم مستطارون مستخفون من هول هذا اليوم .

و تأمل الدقة في وصف الفراش بكونه مبعوثاً أن هذا الوصف يصور لك كثرة الناس في هذا اليوم و تهافتهم. ثم حدثني بربك هل في مفردات اللغة كلمة تصور هذا المشهد سوى هذه الكلمة القرآنية ؟

و هل هناك أعجب من هذه الدقة في وصف الفراش بكونه مبعوثاً ؟

ثم دقق نظرك في كلمة " العن " هل في قواميس اللغة العربية كلمة أفدر على تصوير هذا المشهد من هذه الكلمة ؟ إنها بجمالها وظلمها و جرسها الساحر تصور لك الجبال الضخمة الثابتة بالصوف المنقوش الذي تتقاذفه الرياح الهوج . ثم تأمل بعقلك ر خيالك الدقة و الإحكام في وصف العن بكونه منفوشاً إن هذا الوصف يصور لك الجبال الضخمة الثابتة في منتهى الهشاشة و الخفة .

إنه النظم القرآني يبهر العقول، و يطير بالألباب، و يذهب بسر البلاغة و سحر البيان.

من روائع الاستعارة في القرآن الكريم

قال تعالى في سورة يس ٣٧ :

﴿وَأَيُّ لَّيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

استعير في الآية الكريمة : " السلخ " و هو كشط الجلد عن الشاة و نحوها لإزالة ضوء النهار عن الكون قليلاً قليلاً ، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شيء كان خافياً ، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة ، و بغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الأصل و النور طارئ عليها ، يسترها بضوئه .

و هذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة " الاستعارة التصريحية التبعية " .

استعارة رائعة و جميلة، إنها بنظمها الفريد و بإيحائها و ظلها و جرسها قد رسمت منظر بديعاً للضوء و هو ينحسر عن الكون قليلاً قليلاً و للظلام و هو يدب إليه في ببطء. إنها قد خلعت على الضوء و الظلام الحياة، حتى صارا كأنهما جيشان يقتتلان، قد أنهزم أحدهما فولى هارباً، و ترك مكانه للآخر .

تأمل اللفظة المستعارة و هي " نسلخ " إن هذه الكلمة هي التي قد استقلت بالتصوير و التعبير داخل نظم الآية المعجز فهل يصلح مكانها غيرها ؟

قال تعالى في التكوين ١٨ :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (١٨) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨) استعير في الآية الكريمة

خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً بمعنى النفس تنفس بمعنى خرج النور من المشرق عند انشقاق الفجر .

استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه ، و تربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد ، إنها قد خلعت على الصبح الحياة حتى لقد صار كأننا حيا يتنفس ، بل إنساناً ذا عواطف و خلجات نفسية ، تشرق الحياة بإشراق من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة ، و هو يتنفس بهدوء ، فتتنفس معه الحياة ، و يدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض و السماء ، أرايت أعجب من هذا التصوير ، و لا أمتع من هذا التعبير ؟

ثم تأمل اللفظة المستعارة و هي " تنفس " أنها بصوتها الجميل و ظلها الظليل ، و جرسها الساحر قد رسمت هذه الصورة البديعة في إطار نظم الآية المعجزة ، فهل من ألفاظ اللغة العربية على كثرتها يؤدي ما أدته ، و يصور ما صورته ؟

قال تعالى في الحاقة ١١ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۚ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ ۚ ۝١٢ ﴾ .

استعير في الآية الكريمة " الطغيان " للأكثر الماء بجامع الخروج عن حد الاعتدال و الاستعارة المفرط في كل منها.

ثم اشتق من الطغيان : " طغى " بمعنى كثر .

استعارة فريدة لا توجد في غير القرآن إنها تصور لك الماء إذا كثر و فار و اضطرب بالطاغية الذي جاوز حده، و أفرط في استعلائه. أرايت أعجب من هذا التصوير الذي يخلع على الماء صفات الإنسان الآدمي ؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة " طغى " إنها بصوتها و ظلها و جرسها إحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الساحرة في إطار نظم الآية المعجز .

قال تعالى في الحجر ٩٤ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۚ ۝٩٥ ﴾

استعير في الآية الكريمة : " الصدع " و هو كسر الزجاج للتبليغ بجامع التأثير في كل منهما أما في التبليغ فلأن المبلغ قد أثر في الأمور المبلغة ببيانها بحيث لا تعود إلى حالتها الأولى من الخفاء ، و أما في الكسر فلأن فيه تأثير لا يعود المكسور معه إلى الإلتئامه .

ثم اشتق من الصدع معنى التبليغ اصدع بمعنى بلغ ، استعارة رائعة و جميلة إنها تبرز لك ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة مادة يشق بها و يصدع. إنها تتبرز لك المعنى المعقول في صورة حسية متحركة كأنها كأنك تراها بعينك و تلمسها بيدك. تأمل اللفظة المستعارة " اصدع " إنها بصورتها و جرسها و إحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الفردية المؤثرة إذ أن من يقرأها يخيل إليها أنه يسمع حركة هذه المادة المصدوعة تخيل لو استبدلت كلمة " اصدع " بكلمة " بلغ " ألا تحس أن عنصر التأثير قد تضاعف و أن الصورة الحية المتحركة قد اختفت و أن المعنى قد أصبح شاحباً باهتاً؟

إن اللفظة المستعارة هي التي رسمت هذه الصورة في إطار نظم الآية المعجزة.

قال تعالى في سورة الكهف ١٠٠ : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي

الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝١٠١ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٢ ﴾

استعير في الآية الكريمة الموج " حركة الماء " للدفع الشديد بجامع سرعة الاضطراب و تتابعه في الكثرة ثم اشتق من الموج بمعنى الدفع الشديد " يموج " بمعنى يدفع بشدة .
 إن هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه من البحر الزاخر من حركة و تموج و اضطراب . تأمل اللفظة المستعارة أنها في إطار نظم الآية المعجزة قد استقلت برسم هذا المشهد الفريد بصوتها و جرسها و إيحائها .

قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الرَّكَتَّ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾

استعير في الآية الكريمة الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منها .. و استعير النور بجامع الاهتداء في كل منها . و هذا المسلك الأدبي يسميه علماء البلاغة " الاستعارة التصريحية الأصلية " .

هذه الاستعارة الفردية تجعل الهدى و الضلال يستحيلان نوراً و ظلمة. إنها تبرز المعاني المعقولة الخفية في صورة محسوسة، حية متحركة كأن العين تراها و اليد تلمسها.
 تأمل كلمة " الظلمات " إنها تصور لك بظلامها الضلال ليلاً دامساً يطمس معالم الطريق أمام الضلال فلا يهتدي إلى الحق ثم تأمل الدقة القرآنية في جمع " الظلمات " أنه يصور لك إلى أي مدى يبنهم الطريق أمام الضلال فلا يهتدون إلى الحق وسط هذا الظلام المترام .
 ثم تأمل كلمة " النور " أنها بنورها تصور لك الهداية مصباحاً منيراً ينير جوانب العقل و القلب و يوضح معالم الطريق أمام المهتدي فيصل في سهولة و يسر إلى الحق فينتفع به فيطمئن قلبه و تسكن نفسه و يحظى بالسعادة في دنياه و أخراه .

من روائع الكناية في القرآن الكريم

قال تعالى في سورة البقرة ٢٢٣: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَشَرِّ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

[نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ] لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة " الحرث " عن المعاشرة الزوجية .

إن هذه الكناية الفردية مما انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة دقيقة راسمة مصورة، مؤدية مهذبة، فيها من روعة التعبير و جمال التصوير، و ألوان الأدب و التهذيب ما لا يستقل به



بيان، و لا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن . إنها عبرت عن المعاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتم في السر و الخفاء بالحرث و هذا نوع من الأدب رفيع و ثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية ، و تتطوي تحته معاني كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى الآلف الكلمات انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزراع بحرثه و صلة الزوجة في هذا المجال الخاص ، و بين ذلك النبات الذي يخرج به الحرث ، و ذلك النبات الذي تخرجه الزوج ، و ما في كليهما من تكثير و عمران و فلاح كل هذه الصور و المعاني تتطوي تحت كلمة " الحرث " أليست هذه الكلمة معجزة بنظمها و تصورها ؟، و ملمح آخر من الآية الكريمة عبرت عنها كلمة " حرث " ، إذ أن الله جل علاه يشير إلى الإتيان في موضع الإنبات و أما الموضع الآخر فحرام و إن لم تصرح الآية الكريمة عنه مباشرة فتأمل.

هل في مفردات اللغة العربية — على كثرتها — ما يقوم مقامها و يؤدي ما أدته و يصور ما صورته . إن المعنى لا يتحقق إلا بها . و عن التصوير لا يوجد بسواها .



قال تعالى في سورة البقرة ٢٤:  فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ .

هذه الآية كناية عن عدم العناية عند ظهور المعجزة. أي لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة تأمل هذه الكناية و مدى ما فيها من جمال التعبير ، و روعة التصوير ، و لخطافة الإيجاز . إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، و هذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفيذ و قوة التأثير ، ثم أن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكري المجرد في صورة محسوسة ملموسة و لم يقف عند هذا الحد من التجسيم و التشخيص بل تعداه إلى التصيير و التحويل . فحوله على نار ملتهبة متأججة متوهجة بل تعداه إلى أعجب من هذا التصوير ، و لا أروع و ألد من هذا التعبير ؟ إنه الإعجاز يلبس ثوب الكناية فتحنى له هامات البلغاء، و يثير في النفس أسى آيات الإعجاب.



قال تعالى في سورة البقرة ٢٣٥:

 وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ .

في هذه الآية كنى القرآن الكريم عن الجماع بالسر . تأمل هذه الكناية و مدى ما فيها من اللطائف و الأنوار و الأسرار.. إن في الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الأدب و التهذيب ما يعجز عن وصفه أساطين البيان، و فيها من جمال التعبير ما يسترق الأسماع و يهز العواطف و يحرك الأحاسيس و المشاعر. لقد ألبت الجماع الذي يتم في السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة و البيان. أبعد هذا يقال أن الكناية في القرآن يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان ؟ أبداً و الله إن بني الإنسان من المعجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تتطوي عليه الكناية في القرآن من الأسرار .

قال تعالى في سورة آل عمران ٩٠:  إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ 


كنى القرآن الكريم في هذه الآية بنفي التوبة عند الموت على الكفر . تأمل هذه الكناية و مدى ما فيها من الجمال و الروعة . ألا تحس أن التعبير الذي كنى به القرآن أجمل من أي تعبير آخر ؟ ألا تحس أن في هذا التعبير إيجاز لطيف ؟ إن التعبير بجماله و إيجازه و بديع نظمه فوق مقدور البشر .

قال تعالى في سورة الفيل ٥:  جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ 

كنى القرآن الكريم " بالعصف المأكول " عن مصيرهم إلى العذر فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك .

تأمل هذه الكناية إن فيها من ألوان الأدب و الجمال ما لا يستقل به بيان، و فيها من الإعجاز اللطيف ما يعجز عن وصفه مهرة صناع الكلام. أما الأدب و الجمال ففي التعبير عن العذرة بالعصف المأكول و هذا التعبير مما أنفرد به القرآن فلا يوجد في غيره ، و أما الإيجاز اللطيف ففي اختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير . و فيها زيادة على ذلك التلازم الوثيق بين اللفظ و المعنى الكنائي الذي لا يتخلف أبداً فإن العصف المأكول لا بد من صيرورته إلى العذرة .

فالمعنى لا يؤدي إلا بهذا اللفظ لا يصلح لهذا المعنى حتى لتكاد تصعب التفارقة بينهما فلا يدري أيهما التابع ؟ و أيهما المتبوع ؟ و من هنا يأتي الإعجاز .

قال تعالى سورة الإسراء ٢٩:  وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾  كنى القرآن الكريم في هذه الآية بغل اليد إلى العنق عن البخل ، و ببسطها كل البسط عن الإسراف . تأمل الكنايتين تجد فيهما من روائع

البيان ما لا يحيط به فكر إنسان فيهما جمال في التعبير ، و روعة في التصوير ، و إيجاز و تأثير ، و تنفير .

حدثني بربك ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغیضة منفرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، و هو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا يستطيع يده أن تمتد ، و هو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا يستطيع يده أن تمتد بإنفاق و لا عطية . و التعبير ببسطها لك البسط يصور هذا المبذر لا يبقى من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء. و هكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء. و هكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً ثم تأمل التلازم الوثيق الذي لا يتخلف أبداً بين التعبير و المعنى الكنائي . إن هذا التلازم يدل على أن المعنى الكنائي لا يمكن تأديته و تصويره إلا بهذا التعبير ، و أن هذا التعبير لا يصلح إلا لهذا المعنى . هل في مقدور البشر أن يحاكيوا هذا الأسلوب ؟

إعجاز في نغم القرآن

إنك إذا قرأت القرآن قراءة سليمة، و تلاوة صحيحة. أدركت أنه يمتاز بأسلوب . إيقاعي ينبعث منه نغم ساحر يبهر الأبواب، و يسترق الأسماع، و يسيل الدموع من العيون. و يستولي على الأحاسيس و المشاعر، و أن هذا النغم يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار و الفواصل السريعة، و مواضع التصوير و التشخيص بصفة عامة، و يتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال و لكنه — على لك حال — ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني. إنه تنوع موسيقي الوجود في أنغماء و ألحانه.

و لعنا لا نخطئ إن رددنا سحر هذا النغم إلى نسق القرآن الذي يجمع بين مزايا النثر و الشعر جميعاً يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب : " على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر و النثر جميعاً ، فقد ألقى التعبير من قيود القافية الموحدة و التفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، و أخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقي الداخلية ، و الفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، و التقفية التي تغني عن القوافي ، و ضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا فجمع النثر و النظم جميعاً " . [التصوير الفني في القرآن سيد قطب].

أقرأ معي الآيات الأولى من سورة النجم :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٥﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٦﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٧﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٩﴾ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّتَ وَالْعُرَىٰ ﴿٢٠﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿٢١﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٢٢﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٣﴾ .

تأمل الآيات تجد فواصل متساوية في الوزن تقريباً — على نظام غير نظام الشعر العربي — متحدة في حرف التقفية تماماً ، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعاً و ذلك ، و تبعاً لأمر آخر لا يظهر ظهر الوزن و القافية ، لأنه ينبعث من تألف الحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الجمل ، و مرده إلى الحس الداخلي ، و الإدراك الموسيقي ، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي و إيقاع ، و لو اتحدت الفواصل و الأوزان . و الإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول متحد تبعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي و إيقاع ، و لو اتحدت الفواصل و الأوزان .

و لا يعني هذا أن كلمة " الأخرى " أو كلمة " الثالثة " أو كلمة " إذن " زائدة لمجرد القافية أو الوزن ، فهي ضرورية في السياق لنكت معنوية خاصة . و تلك ميزة فنية أخرى أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السياق لنكت معنوية خاصة ، و تؤدي تناسباً في الإيقاع ، دون أن يطغى هذا على ذلك ، أو نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه ، أو عدلت في النظم أي تعدل .

و إن هذا النغم القرآني ليبدو في قمة السحر و التأثير في مقام الدعاء ، إذا الدعاء — بطبيعة — ضرب من النشيد الصاعد إلى الله ، فلا يحلو وقعه في نفس الضارع المبتهل إلا إذا كانت ألفاظه جميلة منتقاة و جملة متناسقة متعانقة ، و فواصله متساوية ذات إيقاع موسيقي متزن ، و القرآن الكريم لم ينطق عن لسان النبيين و الصديقين و الصالحين إلا بأحلى الدعاء نغماً ، و أروع سحر بيان ، أن النغم الصاعد من القرآن خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، و ينشئ

في كل لحن مرتعاً للخيال فسيحاً : فتصور مثلاً — و نحن نرتل دعاء زكريا عليه السلام —
شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظه ينطق بها مسحة من رهبة ، وشعاع من نور ، و نتمثل هذا
الشيخ الجليل — على وقاره — متأجج.

العاصفة ، متهدج الصوت ، طويل النفس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق شديدة
التأثير . بل أن زكريا في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه و أساه
خوفاً من انقطاع عقبه ، و هو قائم يصلي في المحراب لا يئن ينادي أسم ربه نداء خفياً ، و
يكرر اسم " ربه " بكرة و عشياً ، و يقول في لوعة الإنسان المحروم و في إيمان الصديق
الصفى يقول سبحانه وتعالى في أول سورة مريم :

﴿ كَهَيْعَصَ ۚ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۚ
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ۚ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
وَلِيًّا ۚ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۚ

و إن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية ببيائها المشددة و
تتويناها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق : فهذه الألف اللينة الرخية
المناسبة تناسقت بها " شقيا- وليا — رضيعاً " مع عبد الله زكريا ينادي ربه نداء خفياً ، ولقد
استشعرنا هذا الجو الغنائي و نحن نتصور نبياً يبتهل وحده في خلوة مع الله ، و كدنا نصغي
إلى ألقانه الخفية تتصاعد في السماء ، فكيف بنا لو تصورنا جماعة من الصديقين الصالحين
و هم يشتركون : ذكرانا و إناثا ، شبانا بأصوات رخيمة متتاسقة تصعد معا و تهبط معا و
هي تجار إلى الله ، و تتشد هذا النشيد الفخم الجليل آل عمران ١٩١ :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ
تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ۖ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا

وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٦٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٦٤﴾

إن في تكرار عبارة " ربنا " لما يلين القلب ، و يبعث فيه نداوة الإيمان ، و أن في الوقوف بالسكون على الرء المذلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم و الترنيمة ، و يعوض في الأسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان .

و لئن كان في موقفى الدعاءين هذين نداوة و لين ، ففي بعض مواقف الدعاء القرآني الأخرى صخب رهيب ، ها هو ذا نوح عليه السلام يدأب ليلاً و نهاراً على دعوة قومه إلى الحق ، ويصر على نصحهم سراً و علانية ، و هم يلجون في كفرهم و عنادهم ، ويفرون من الهدى فراراً ، و لا يزدادون إلا ضللاً و استكباراً ، فما على نوح — و قد أيس منهم — إلا أن يتملكه الغيظ و يمتلئ فمه بكلمات الدعاء الثائرة الغضبي تتطلق في الوجوه مديدة مجلجلة ، بموسيقاها الرهيبة ، و إيقاعها العنيف ، و ما تتخيل الجبال إلا دكا ، و السماء إلا متجهمة عابسة و الأرض إلا مهتزة مزلزلة ، و البحار إلا هائجة ثائرة ، حين دعا نوح على قومه بالهلاك و التيار فقال في سورة نوح ٢٦:

﴿٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾

" . أما الحناجر الكظيمة المكبوتة التي يتركها القرآن في بعض مشاهده تطلق أصواتها الحبيسة — بكل كربها و ضيقها و بحتها و حشرتها — فهي حناجر الكافرين النادمين يوم الحساب العسير ، فيتحسرون و يحاولون التنفيس عن كربهم ببعض الأصوات المنقطعة المتهدجة ، كأنهم بها يتخففون من أثقال الدين يدعون ربهم دعاء التائبين النادمين و يقولون كما صورتهم سورة الأحزاب ٦٧ — ٦٨ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ

﴿٢٩﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِيهِمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٣٠﴾

و إن هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته ، فتكاد تستقل — بجرسها و نغمها — بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، و فيها الظل شفيفاً أو كثيفاً .

أرأيت لونا أزهي من نضرة الوجوه السعيدة الناضرة إلى الله ، ولونا أشد تجهما من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى سورة القيامة ٢١ — ٢٥:

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ ﴿٢٤﴾ تَطْشُنُ أَن
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ .

لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة " ناضرة " بتصوير أزهى لون و أبهاه ، كما استقلت في
لوحة الأشقياء لفظة " باسرة " برسم أمقت لون و أنكاه [١].

(١) إعجاز النظم في القرآن الكريم تأليف الأستاذ محمود شيخون .
دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن الدكتور المحمدي عبد العزيز الحناوي
إعجاز القرآن البياني الدكتور عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي

والسؤال الآن أين موضع كلام الله سبحانه وتعالى المعجز من كلام ذلك القس الذي عارض القرآن وأنزله على صفحة الإنترنت وإليك على سبيل المثال الصفحات التالية من قرآنه والذي أسماه الفرقان الحق ولقد أهدرت وقتي في التعليق على النصوص المكتوبة إلا أنني وجدت أنه من العبث أن أشغل نفسي بتوافه الأمور وأنا الذي اعتدت أن أشغل نفسي بالأمور الكبيرة الأمر الذي جعلني أمحو ما كتبت واستغفرت ربي:

الْفُرْقَانُ الْحَقُّ

THE TRUE FURQAN

1 THE OPENING (Al Fateha)

(١) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

In the Name of the
Father, the Word, the Holy
Spirit, the One and only True
God

بِسْمِ الْآبِ الْكَلِمَةِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ
الْأَوْحِدِ

1. Behold, this is the
authentic **True Furqan** which
We inspire, declare it to whom-
ever has gone astray from among
Our people and do not fear
anyone who may retaliate against
this proclamation.

(١) هُوَذَا الْفُرْقَانُ الْحَقُّ نُوحِيهِ بَلِّغُهُ لِلصَّالِحِينَ
مِنْ عِبَادِنَا وَلِلنَّاسِ كَافَّةً وَلَا تَخْشَوْنَ الْكَافِرِينَ .

2. It is a victorious **True Furqan**, which shall bring to
naught the sword of injustice
with the palm of justice, blazing a
straight path for those who repent
from having gone astray

(٢) مَهِّينٌ يُخْطِمُ سَيْفَ الظُّلْمِ بِكَفِّ
الْعَدْلِ وَيَهْدِي الضَّالِّينَ .

3. Moreover, **The True Furqan** will completely demolish
the weak structure of unfaithful-
ness with the righteous hand of

(٣) وَيَهْدِمُ صَرْحَ الْكُفْرِ بِدِ الْإِيمَانِ
وَيَسْنِدُ مَوْقِعَ الْفِتَنِ .

2

LOVE

(Surat Al Mahabbah)

(٢) سُورَةُ الْمَحَبَّةِ

In the Name of the Father,
the Word, the Holy Spirit, the
One and only True God

بِسْمِ الْآبِ الْكَلِمَةِ الرُّوحِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ
الْأَوْحِدِ

1.O, you who have enmity within you, yet still claim to be counted among Our worshipers: listen and understand, love is Our top priority. Therefore, if you can speak the languages of the world and the literary articulation with brilliance but do not consider love, your speech is for naught. It would have been preferable that you kept silent.

(١) يَا أَهْلَ الْبَغْضَاءِ مِنْ عِبَادِنَا الضَّالِّينَ:
إِسْمَعُوا وَعُوا: إِنَّ الْحُبَّ سُنَّتُنَا. فَلَوْ طَلَعْتُمْ
بِاللِّسَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَلُغَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِعْجَازِ وَمَا
تَكَلَّمْتُمْ عَنْ الْمَحَبَّةِ فَكَلَامُكُمْ كَدُّ لَفْوٍ
وَحَيْرٌ لَكُمْ لَوْ بَقِيتُمْ صَامِتِينَ.

2. If you were prophets, endowed with wisdom, peering through the supernatural and performing miracles, yet without love, you will still lack integrity; neither is any goodness residing in you. For in reality you are hypocrites.

(٢) وَلَوْ كُنْتُمْ أَنْبِيَاءَ وَأُوتِيتُمْ الْحِكْمَةَ
وَاطَّلَعْتُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَأَتَيْتُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ
دُونَ مَحَبَّةٍ فَلَا حَوْلَ لَكُمْ وَلَا نَصَ وَإِنَّمَا
أَنْتُمْ مُنْكَرُونَ.

3

LIGHT

(Surat Al Noor)

In the Name of the Father,
the Word, the Holy Spirit, the
One and only True God

1. Behold, the Divine Light
has come. Truth is now revealed.
It is driving away deceit and
brightly shining the rightly-guided
pathway to guide all who have
been led astray.

2. The hour of judgment is
fast approaching. Surely deceit
will be retracting. None can ever
escape Our Judgment Day
because all the hypocrites will be
in utter disarray.

3. The rising sun shines
brightly across the entire human
passageway. Those who lived in
darkness shall see Truth as a shaft
of sunlight's ray. Even hardened
unbelievers will then understand
and believe in what We reveal
and say.

٣) سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ الْآبِ الْكَائِنَةِ الْوَحْدِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ
الْأَوْحِدِ

(١) هُوَذَا النُّورُ الْأَقْدَسُ قَدْ أَشْرَقَ فَجَاءَ
الْحَقُّ وَبَرَهَقَ الْبَاطِلُ فَلْيَهْتَدِ الشَّاهِدُونَ .

(٢) وَافْتَرَسَتِ السَّاعَةُ وَأَتَشَقَّ الْبَاطِلُ فَلَا
عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِنا قَوْلٌ لِلْمُتَرَدِّينَ .

(٣) وَأَتَبْلُجُ الصُّبْحُ فَلْيُصِرِ الْعُنُيُ ،
وَحَصْحَصَ الْحَقُّ فَلْيُؤْمِنِ الْكَافِرُونَ .

Z
EPILOGUE
(Surat Al Khatimah)

ي (الخاتمة)

In the Name of the Father,
the Word, the Holy Spirit, the
One and only True God

بِسْمِ آيَةِ الْكَلِمَةِ الرُّوحِ الْإِلَهِيِّ الْوَاحِدِ
الْوَاحِدِ

1. O, you who have
wandered away, yet still number
yourselves among Our godly
followers: do not block Our Light.
Do not excuse yourselves by
claiming that you are uneducated,
uninformed and illiterate.

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ تَرَاغَوْا مِنْ عِبَادِنَا الصَّالِحِينَ:
لَا تَجْبُوا نُورَنَا عَنْ جَهْلٍ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ.

2. Furthermore, do not
interpolate Our Truth with your
own gibberish, thereby acting as
unrepentant heathens.

(٢) وَلَا تَحْمِسُوا الْفُرْقَانَةَ فِي أَقْوَانِنَا
مُحَرِّفِينَ الْحَقَّ كَالْكَافِرِينَ.

3. No one in the entire
cosmos has ever been authorized
to alter any portion of Our written
Scriptures. We implore you to
obey it and understand it. Seek
restoration from your foolish

(٣) فَلَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِنَا. فَاسْمَعُوا
وَعُومُوا وَارْجِعُوا عَنْ غَيْبِكُمْ وَلَا تَرْتَابُوا
مِنْ صَبَاتِنَا وَمَا أَصْطَفَيْنَاهُ لَكُمْ مِنْ الْهُدَى

الإعجاز في القصة القرآنية

١- قصة زكريا ويحيى: كما هي في إنجيل لوقا والقرآن الكريم:

القصة في إنجيل لوقا ١ : ٥ - ٢٢

البشارة بميلاد يوحنا

[٥ كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن من فرقة أبيا اسمه زكريا، له زوجة من سلالة هرون اسمها أليصابات. ٦ وكان زكريا وأليصابات صالحين عند الله، يتبعان جميع أحكامه ووصاياه، ولا لوم عليهما. ٧ وما كان لهما ولد، لأن أليصابات كانت عاقرا، وكانت هي وزكريا كبيرين في السن.

٨ وبينما زكريا يتناول الخدمة مع فرقته ككاهن أمام الله، ٩ أُلقيت القرعة، بحسب التقليد المتبع عند الكهنة، فأصابته ليدخل هيكل الرب ويحرق البخور. ١٠ وكانت جموع الشعب تُصلي في الخارج عند إحراق البخور.

١١ فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. ١٢ فلما رآه زكريا اضطرب وخاف. ١٣ فقال له الملاك: «لا تخف يا زكريا، لأن الله سمع دعائك وستلد لك امرأتك أليصابات ابناً تُسميه يوحنا. ١٤ وستفرح به وتبتهج، ويفرح بمولده كثير من الناس، ١٥ لأنه سيكون عظيمًا عند الرب، ولن يشرب خمرًا ولا مسكرًا، ويمتلئ من الروح القدس وهو في بطن أمه، ١٦ ويهدي كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم، ١٧ ويسير أمام الله بروح إيليا وقوته، ليصالح الآباء مع الأبناء ويرجع العصاة إلى حكمة الأبرار، فيهيئ للرب شعبًا مُستعدًا له».

١٨ فقال زكريا للملاك: «كيف يكون هذا وأنا شيخ كبير وامرأتي عجوز؟» ١٩ فأجابهُ الملاك: «أنا جبرائيل القائم في حضرة الله، وهو أرسلني لأُكلمك وأحمل إليك هذه البشارة. ٢٠ لكنك ستصاب بالخرس، فلا تقدر على الكلام إلى اليوم الذي يحدث فيه ذلك، لأنك ما آمنت بكلامي، وكلامي سيثبت في حينه».

٢١ وكانت الجُمُوعُ تَنْتَظِرُ زَكَرِيَّا وَتَتَعَجَّبُ مِنْ إِبْطَائِهِ فِي دَاخِلِ الْهَيْكَلِ. ٢٢ فَلَمَّا خَرَجَ، كَانَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَكَلِّمَهُمْ، فَفَهِمُوا أَنَّهُ رَأَى رُؤْيَا فِي دَاخِلِ الْهَيْكَلِ. وَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِالْإِشَارَةِ، وَبَقِيَ أَخْرَسًا.].


القصة في سورة آل عمران ترّد هذه الآيات :

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٢﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِ الْكَبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ۖ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٢٥﴾

لاحظ مدى تطابق القصتين، والسؤال الآن من الذي أنبأ النبي ﷺ بما هو موجود في الإنجيل والذي كان مكتوباً باليونانية آنذاك ؟ ولم يترجم إلى العربية إلا في العصر العباسي ، ولك أن تتأمل الآيات الكريمة في القرآن الكريم:

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٢﴾

المشهد هو مريم منقطعة للعبادة في المحراب، وزكريا لا يفتأ يدخل عليها يتفقد أحوالها، فهو كفيها المسئول عن تربيتها ورعايتها، فيجد عندها رزقا متجددا فيسألها: من أين لها هذا وهي لا تبارح المكان ولا تسعى على الرزق، فتجيبه في براءة وبساطة :


﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.  تجيش نفس زكريا بمشاعر

هائلة، وهو يرى الفيض الإلهي يفيض على مريم، وهي الطفلة التي لا حول لها ولا طول. فيشتاق.. يشتاق إلى الذرية، ولم يكن قد رزق بالولد بعد، ويشتاق إلى أن يفيض الله عليه من نعمائه كما أفاض على هذه الطفلة الصغيرة التي كلفه الله برعايتها.. ﴿هُنَالِكَ﴾ دعا زكريا ربه.. ﴿هُنَالِكَ﴾.. ما دلالة اللام في هنالك؟! إن اللغويين والبلاغيين يقولون إنها تعبر عن البعد. فالشيء يشار له بكلمة [هنا] إذا كان حاضرا قريبا تدركه العين أو اليد لقربه. ويشار إليه بكلمة [هناك] إذا كان بعيداً عن متناول اليد.. ثم إذا اشتد بعده يشار إليه بكلمة [هنالك] بزيادة اللام لتعطي مزيدا من البعد.. فأين البعد هنا؟ هذا هو المحراب، وهذه هي مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها في نفس المكان..


لا بعد في المكان، ولا بعد في الزمان.

إنما البعد في أغوار النفس ﴿هُنَالِكَ﴾ في أعماق نفس زكريا تحرك الشوق.. الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهي الذي يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان. هل تحس مدى العمق في المشهد.. العمق الواغل في أعماق النفس؟ ... إنه الإعجاز..

٢- الإعجاز في سورة يوسف عليه السلام

يقول  في سورة يوسف:

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾  ١. [يأت].. من أين يأتي؟! إن المقصود أنه يعود مبصرًا في التو واللحظة. ولكن الفعل [يأتي] يظل له إيحائه.. فما دلالته؟. إن يعقوب عليه السلام لم يكن غائبا فيأتي! فهو جالس مكانه لا يريم! ولكنه كان كالغائب..

(١) يوسف: ٩٣.

فحين فقد بصره لم يكن [حاضراً] فيما حوله، يراه، ويتفاعل معه كما يتفاعل المبصرون! إنما كان [غائباً] ببصره عنه.. وحين يرتد بصيراً فإنه [يأتي].. يأتي من غيبته التي كان فيها، ويصبح [حاضراً] فيما يحيط به من أشخاص وأشياء..

وكلمة واحدة تعطى هذا المعنى العميق كله، وتجعل المشهد يتحرك بحركة [المجيء] بعد [الغياب]!.... هذا هو المشهد القرآني فأين هو مما هو موجود بسفر التكوين:

[٩]فَأَسْرِ عُوا بِالْعَوْدَةِ إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: هَذَا مَا يَقُولُهُ ابْنُكَ يَوْسُفُ: جَعَلَنِي اللَّهُ سَيِّدًا لِّجَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ. تَعَالَى إِلَيَّ وَلَا تَتَأَخَّرْ، ... لاحظ قوله [تَعَالَى إِلَيَّ وَلَا تَتَأَخَّرْ] وقارنه بما هو في القرآن الكريم ﴿يَأْتِ بِصِيرًا وَآتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ألا إنه الإعجاز ..

ونستمر مع القصة ولكن بدون تعليق :

في تكوين ٤١ : ١ - ٤

[وَبَعْدَ مُرُورِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ رَأَى فِرْعَوْنُ حُلُمًا كَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ٢ فَطَلَعَتْ مِنَ النَّهْرِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ سَمِينَةٍ الْأُبدَانِ، وَأَخَذَتْ تَرعى فِي الْمَرْجِ. ٣ ثُمَّ طَلَعَتْ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ هَزِيلَةِ الْأُبدَانِ، وَوَقَفَتْ بِجَانِبِهَا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. ٤ فَأَكَلَتْ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ الْهَزِيلَةَ الْأُبدَانِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ.]

في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عَجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَتَأَيَّأُ الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾

والسؤال الآن يا سيدي يا رسول الله من أنبأك هذا؟.

وهناك إعجاز آخر

لم ترد قصة يوسف، عليه السلام، إلا في التوراة ثم في القرآن الكريم، واللافت أن التوراة تتفق وتختلف مع القرآن في تفاصيل القصة؛ فالتوراة، مثلاً، تشعر بأن يوسف، عليه السلام،

كان يعيش تحت سلطان الفرعون، في حين نجد أنّ قصة يوسف في القرآن الكريم لا يُذكر فيها الفرعون، بل تذكر ألفاظ مثل، (الملك، العزيز)، أما في قصّة موسى، عليه السلام، فنجد أنّ التوراة والقرآن يلتقيان في ذكر الفرعون كملك لمصر. وقد تأثر بعض أهل التفسير بالتوراة فكانوا يرون أنّ الملك هو الفرعون.

جاءت الدراسات الأثرية والتاريخية الحديثة لتثبت بأنّ يوسف، عليه السلام، كان معاصراً لحكم الملوك الرعاة الهكسوس، الذين حكموا شمال مصر لقرنين من الزمن، وكانوا قد طردوا الفراعنة إلى الجنوب. وعليه لا يكون الحاكم زمن يوسف، عليه السلام، هو الفرعون. ومعلوم أنّ لفظة (فرعون) تطلق فقط على ملوك الفراعنة، كما هو الأمر في قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس.

فالتوراة، كما لاحظنا، وقعت في خطأ تاريخي، لأنّ الذين كتبوها عاشوا بعد قرون طويلة من حصول القصّة، من هنا دخل عندهم الوهم بأنّ حكم مصر زمن يوسف كان للفراعنة. أمّا القرآن الكريم فقد عبّر بدقة عن الحادثة التاريخية التي كانت مجهولة تماماً في فجر الرسالة الإسلامية.

ولكن المستشرقين لهم في ذلك تخرصات! يقولون: لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلاً من كتب أهل الكتاب، أو سطوا عليها، أو تلقوا من أصحابها! وما أحسب أن فرية يمكن أن تبلغ من الكذب المفضوح أشد من هذه الفرية! كيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحد؟ وكيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقرر أن الله ولداً يشاركه في الإلهية، أن يقرر أن الله لا شريك له ولا ولداً؟! وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب لم تترك نبياً من أنبياء الله إلا لطخت سمعته وشوهت صورته، واتهمته بما لا يجوز في حق الرجل العادي فضلاً عن النبي المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذي وردت به سير الأنبياء في القرآن؟!.

وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب لم تتعرض لآيات الله في الكون، ولا لأطوار الجنين البشري من النظفة للعلاقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد في كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!.

ألا تستحي هذه الناس!؟

وهناك المزيد

